

إيولاً ٧٦

أميرتاج السيد

سوي

الهاقير

١
أميرتاج السرد

أيلول ٧٦



دار
الساقية

في زمن المأساة،
تبدو الأشياء حقيقية.
العيون حقيقية.
اليد التي تحيي الجار حقيقية،
والقمر ليس محض خيال بعيد، لكنه حقيقي.
تسألني حبيبتي عن معنى الحقيقة،
وأحيل سؤالها للمأساة،
يسألني العابرون عن معنى الدم الحقيقي،
وأقول: الذي تزرعه المأساة.

في شهر أغسطس عام ١٩٧٦، ضرب فيروس إيبولا القاتل، الذي يسبب الحمى النزيفية، مناطق عديدة من جمهورية الكونغو كينشاسا، ومنطقة أنزارا الحدودية، في جنوب السودان، وقيل إن عاملاً بسيطاً في مصنع للنسيج، هو الذي جلبه. هذه ليست قصة عامل النسيج، ولا غيره من الشخوص الذين وردوا في هذا النص، ولكنها محض خيال بحث، لا علاقة له بالحقيقة مطلقاً. حتى ما ذكر عن التمرد والحرب الأهلية، ليس صحيحاً، ولا يجب أن يحال إلى تواريخ حقيقية.

تتبع إيبولا القاتل، لويس نوا ظهر ذلك اليوم الحار من شهر أغسطس، عام ١٩٧٦، وهو يتحرق شوقاً ليسكن دمه.

كان لويس من منطقة أنزارا الحدودية، في جنوب السودان، عامل نسيج بسيطاً في مصنع صغير، لإنتاج الألبسة القطنية، يملكه ويديره محارب سابق في جيش المتمردين على سلطة الخرطوم المركزية، اسمه جيمس ريك، وقد جاء لويس إلى الكونغو في زيارة حزن مبالغته، حين علم مصادفة من أحد العائدين من كينشاسا، بموت امرأة دغدغت قلبه وشهوته في العامين الأخيرين، مستولية على كل وذ كان يكتنح لزوجته في السابق. لم يمكث في وسط العاصمة كينشاسا إلا بمقدار تلفته في حذر، وعبوره الطريق غير المرصوف، بين موقف حافلة الركاب الصغيرة التي أقلته من أنزارا، وموقف حافلة أخرى، أراد استقلالها إلى مقبرة في الأطراف، حيث يرقد المئات من ضحايا إيبولا، حصدهم في انطلاقته الكبرى المحيرة تلك.

كان إيبولا حوله، وقريباً جداً منه، ويتحين الوقت المناسب لافتراسه. دخل المقبرة المسورة بالحجر الأبيض، والمحاطة بأشجار بعضها مورق وبعضها ذابل، والفيروس موجود، تحمله عشرات الأجساد التي صادفها هناك، كان في دم المتسولة العجوز الفائرة الخدين، التي مدت له يدها في صمت، ومنحها نصف فرنك وهو يدخل، في دم حارس الأمن المتسلط الذي يقف عند البوابة، متكناً على سلاحه القديم ونظراته تتحاور بين الداخلين والخارجين، في دماء الزوار العديدين الذين ألقى عليهم نظرة هائمة أو لم يلق، وحتى حين انحنى على قبر المرأة التي جاء من أجلها في تلك الرحلة الشاقة، وبكى بشدة، كان ينحني ويبكي على قبر امرأة، كان الفيروس في جسدها الميت، وقضى عليها منذ يومين فقط.

لا يدري إيبولا القاتل، الذي يروع الناس منذ فترة في تلك البلاد، ما الذي لفت نظره في لويس نوا، ليضطرب كل ذلك الاضطراب، ليقرر الهجرة عبر دمه إلى بلاد أخرى، بعد أن كثر عليه النجاح في بلده الأصلي، وجددت الدولة تعابنها وعقاريها وكل ما تمتلكه من خير وشر لملاحقته، واكتشاف هويته، ووصلت عينات من دماء ضحاياه العديدين، إلى دول العالم المتقدمة مثل أميركا وكندا،

وأستراليا، والآن يدرسونها بعمق، تحت عدسات مرعبة، للعثور على لقاح ضده، أو دواء يعدمه إلى الأبد.

لم يكن لويس نوا في الواقع، جذاباً، لم يكن وسيماً أبداً، أنفه في غاية الضخامة وفيه بنور بيضاء، تختفي وتعود، كتفاه أعرض مما ينبغي لكتفين، شفتاه مشققتان بفعل الحر، وجفاف الحلق، وفي مقدمة جبهته العريضة، نُحِثت بالنار، تلك الفصوص المقيتة التي اشتهرت بها قبيلته، وتحمل معنى مقدساً.

كم كان عمره؟ لا أحد يدري بالتحديد، لكنه يبدو في الأربعينات، أو بداية الخمسينات، تاريخه المرضي يبدو ناصعاً حتى الآن، لا ضغط ولا سكر، ولا خفة في النظر، ولا احتقان في الكلى أو البروستاتا، ولا شيء آخر باستثناء حفى المستنقعات التي تنشط في خلاياه أحياناً، والتي ليست مرضاً على الإطلاق في تلك المناطق. تاريخه العاطفي سخيف بعض الشيء، فقد بدأ ترلحات الحب في سن مبكرة، غازل ست عشرة فتاة من جيله، وأجيال أصغر وأكبر، ولم تستجب له سوى واحدة كانت شبه عمياء، ما لبثت أن فارقتة بلا سبب. تزوج منذ سبع سنوات، بامرأة اسمها تينا أزاقوري، من قبيلة أخرى غير قبيلته، تعيش معه في أنزارا وتعمل مع أمها في بيع الماء في الشوارع، وكانت عرضة لست عمليات اغتصاب ناجحة، واثنتين غير ناجحتين تماماً، ولم يهجرها لويس عملياً بسبب تلك الانتهاكات، لكن هجرته العاطفية لها ابتدأت منذ عامين فقط، حين تعزف إلى هذه المرأة التي يبكي عليها الآن بكامل دموعه، أين، أو إلينا كما كان يسميها، لا يهم، فقد تخلص منها إيبولا العنيف إلى الأبد، ولا يعرف لماذا تخلص منها ومن كل أولئك الذين يرقدون بجوارها، ويبكي عليهم أهل، هم أيضاً في طريقهم إلى الزوال، قريباً على يديه، ولا يعلمون شيئاً حتى الآن، يتفهون من نشرات الأطباء الصحية، ومحاولات الدولة تنبيههم لخطر غير معروف الهوية جيداً، يلاحقهم، يعتبرون ما يجري في القرى من موت، يعقبه موت، يعقبه موت ثالث، ورابع، وألف، إجراءات انتقامية، يبعثرها ساحر شرير، ولم يكن ذلك الساحر موجوداً إلا في مخيلاتهم الفقيرة.

كان نوا يزور تلك المرأة التي تعزف إليها في نزل ضيق، في أطراف العاصمة كينشاسا، أقام فيه مرة أثناء حضوره بغرض السياحة، وكانت من خادمتي تنظيف الغرف غير المتطلعات، يأتيها مرة أو مرتين في الشهر، محملاً بأشواق المحبين كلها، وبكيس من الطعام الجيد، يكفي ليومين، يقضيها شهوانياً، معربداً، ملتصقاً بشياطين الفجور كلها، ويذهب لينخرط في العمل، وفي داخله أشواق بلا حدود، لعودة أخرى أشد جنوناً ورغبة، وكان لحسن حظه غائباً، حين

سكنها الفيروس القاتل، وتوغل فيها حتى نزلت دمها الأخير. لقد دخلها عن طريق رجل آخر، كان يأتي في غياب نوا، فلم تكن وافية له أبداً.

الآن، الرجل المرشح ليفزوه إيبولا، ويهاجر عبر دمه إلى دولة أخرى، يعربد فيها بنفس جنونه، قد كف عن البكاء المر، مسح عينيه بطرف ثوبه الأفريقي ذي الألوان المزركشة، اقتربت منه بانعة أزهار حافية، وضيئة الجسم، اعتادت ارتياد تلك المقبرة القريبة من بلدتها الصغيرة، وبيع العزاء للحزاني، ولم يدخلها الفيروس بعد. بالرغم من قلة اكتراثها، وإمكانية أن تسقط في أي لحظة. لمستته الفتاة في كتفه، بزهرة بنفسجية ذات رأس أسود، ونهض واقفاً ملسوعاً، اشترى الزهرة نفسها وزهرتين أخريين من نفس النوع، غرس بضاعته، في تربة القبر الرطبة، وابتعد عن المكان، وعيناه ما تزالان، خارج سيطرته، كأننا شبه مثبتتين على القبر، حيث ترقد إيلينا الضائعة.

لا يعرف أحد إن كان أولئك الرجال المتباينو الأعمار والسحنات، الذين أحاطوا به بغتة، وتحدثوا إليه أكثر مما يجب، وبأصوات هامسة، من معارفه، أم مجرد حزاني آخرين أرادوا أن يشاركوه فكرة ما، الشيء المعروف، أن معظمهم كانوا يحملون الفيروس في الدم، ولن يلبثوا أن يتساقطوا تبعاً في وقت قريب.

كان أنف لويس نوا محجوباً عن الشم في تلك اللحظة، فقد أرخى شال القطن الذي يضعه على كتفه، وهو من منتجات المصنع الذي يعمل فيه، غطى به نصف الوجه حتى يختفي جزء من كآبة الفقد، ولم يكن يدري أنه يتقي بذلك، إصابة محتملة، استعداد لها إيبولا المنتشر في رذاذ التنفس.

في طريقه من باب المقبرة، نحو الطريق العام، إلى حيث يمكنه العثور على عربة تقله إلى وسط المدينة، اعترضه أحد الذين أخفق الفيروس في اقتناصهم على الإطلاق، عازف الغيتار الأعمى الشهير، روادى مونتي، الملقب بالإبرة في محيط معجبيه ومنتقديه معاً، وكان شديد الحرص في حياته كلها، ووسيماً برغم عينيه الهانمتين بلا رؤية، وقادراً على شم البشر ومخلفاتهم من على بعد عشرات الأمتار، إضافة إلى كونه متأثراً بالغرب في ثقافته، ويزعم أنه تلقى تعليمه في جامعة بروكسل، وكزم هناك باعتباره أول وآخر أفريقي بلا بصر، يتخرج في تلك الجامعة. كان ذلك مجرد ادعاء، خارج نطاق الإبداع، فكينشاسا التي يقطنها الإبرة منذ ستين عاماً، بكل أحيائها وسكانها، تعرف أنه ادعاء، وأن شهادته في الموسيقى، شهادة أفريقية بحتة، حصل عليها في بيته وبجهود مضنية، لكنه زار بروكسل حقيقة، وترنح بغيتاره في «غاليري ستريت»، أكثر

شوارعها ازدحاماً ورهبة، وشارك في كورال حماسي، على مسرح « دي لا مونييه» الكبير، أعد لمؤازرة العالم الثالث المنكوب.

لم يكن عازف الغيتار، الذي تلازم خطواته فتاةً مليحة في أوائل العشرينات، اسمها دارينا، ويبدو أنها عصاه التي يتوكأ عليها، يريد شيئاً من لويس نوا، ولا كان ساكن أنزارا الحزين يمثل ميداناً ممهداً أو غير ممهد، تركض فيه خيول عازف غيتار قديم وشهير ملقب بالإبرة. إنها عادة، تعودها روائي منذ كان صغيراً في السن، أن يعترض المارة في الطرق أحياناً بلا هدف، وأحياناً لاستطلاع الرأي في نجوميته، بعد أن غدا نجماً. يمكن أن يعترض أمه، لو خرجت من البيت، يعترض مسلحين خطرين، ويعرف أنهم خطرون، ويعترض حتى نفسه، لو صادفها مارة في الطريق، ووجوده اليوم عند المقبرة، كان بلا هدف، لقد جاء ليعترض الطريق فقط. وقد سافر مراراً إلى أنزارا وأماكن أخرى مجاورة، وبلاد بعيدة، بنفس طابعه الغربية، أحياناً حفلات صاخبة، ممثلة جمهوراً ونزقاً وفتيات مليحات، لم يبصرهن بالطبع، وأخرى في غاية الكساد، لم يحضرها سوى الذين نظموا، وبعض هواة حضور الحفلات، حتى لو كانت بلا معنى. وأتيح له مراراً أن يلتقي بسلاطين القبائل، ونواب المجالس الشعبية، يتعشى على موائدهم، وبعض أثرياء الحروب هنا وهناك، يطربهم بقليل من المال.

مد روائي يده الرشيق التي كانت تستحق لقباً رسمياً ممجداً، لم تحصل عليه أبداً، تحسس بها جبهة نوا، مررها على دوائر الفصد المقدسة المقيتة أولاً، وتعزف إلى قبيلته بنفس السهولة التي يتعرف بها إلى تنفسه، ثم تحسس الشال الذي يرتديه، قال:

- سامحني يا سيدي على اعتراض طريقيك بهذه الصورة المزعجة، وفي وقت غير مناسب... لقد أعجبني لون شالك. الأزرق لوني المفضل.

كانت مصادفة، أو لعلها ليست مصادفة على الإطلاق، أن شال نوا كان أزرق اللون، وملابس روائي الأنيقة المكونة من حلة كاملة، وقميص حريري، زرقاء اللون أيضاً.

- شكراً.

قال نوا، وأحكم لف شاله حول رقبته، وغطى أكبر جزء ممكن، من وجهه، كانت كآبة الحزن مهيمنة بالكامل.

كان يتبعد، ويسمع عازف الغيتار يصيح من خلفه:

- موعداً في جنوب السودان قريباً، في بلدك أنزارا، أيها الرجل الحزين... سأحيي حفلاً صاخباً هناك... كن موجوداً لتستمتع، وتنسى.

كان من المفترض أن يندهش نوا في تلك اللحظة، على الأقل من مسألة لون الشال، باعتبار أن الفصداً الركيكة على جبهته، هي التي دلت العازف على قبيلته و موطنه، لكنه لم يفعل، ولعله الحزن الذي ما زال يفور في دمه، ما أجل تلك الدهشة، أو ألغاهها تماماً من قوانين الانفعال. عبارة العازف الأعمى بدت له برغم إدهاشها، مثل أي عبارات أخرى، يمكن أن يسمعها يومياً في مصنع ألبسة القطن الذي يعمل فيه منذ سنوات، وسط زملاء بعيدين تماماً عن الإبهار، أو في السوق، عند باعة اللحم والخضروات، وتجار السلع المستهلكة من العرب، أو عند منقو نقوشوا الحلاق الذي يقص الشعر لثلاثي مواطني أنزارا الرجال، ويبدو سعيداً بذلك الشقاء المستمر. والحقيقة وهو يستعيدها ثانية في ذهنه، بدت له كأنها عبارات البيت الروتينية التي ترددها زوجته تينا في أذنه يومياً بلا انقطاع، منذ أن هجرها عاطفياً. بمناسبة زوجته تلك، تذكر العشيقة الميتة، تذكرها بحدة، لدرجة أوشك فيها أن يعود إلى القبر الرطب مرة أخرى، يبكي ويفرس المزيد من الزهور البنفسجية ذات الرأس الأسود.

الذين تحدثوا معه في المقبرة، أخبروه باقتناع تام عن الساحر الشرير الذي يوزع الموت في عدد من القرى والمدن، بلا أي هدف معروف، وتفاعل معهم، ليس لأنه أراد أن يتفاعل، ولكن لأن نشأته وبيئته، ومستواه العقلي، كانت مهياة تماماً لمثل ذلك التفاعل، وبالرغم من أن السكان سمعوا عما يسقى الفيروس الغامض، وقرأ المتعلمون منهم نشرات وزارة الصحة، المطبوعة براكاة على ورق رخيص، واستمعوا إلى الراديو الذي اعتاد قطع أغنيات مجيدة وتراثية، مثل أغنيات دريدو لونوا، وسليمان أغو، وعلي فرتكاري، ومنليك الإثيوبي، وإذاعة أخبار القاتل الرهيب، كانت مسألة الساحر الشرير، هي الأقوى والأرفع شأنًا، ومن ثم جندت كثير من القبائل، سحرته المعتقدين، زودتهم بخامات التعاويذ كلها، وأمرتهم بتعقب الشر في أي جحر من جحوره، ومنازلته حتى يسقط.

نوا من بيئة مشابهة، نفس الدماغ المعد سلفاً لتقبل الأبسط، نفس تعرق اليدين بلا حر ولا رطوبة، نفس مستوى هرمونات الجسد، وتأخر ظهور الشيب في الرأس، وأشياء أخرى، من صميم ويلات أفريقيا. لذلك، باستثناء حزنه على العشيقة الضائعة، لم يضيف إلى قاموس مشاعره في تلك الظهيرة الحارة، سوى سخط مكتوم، على ساحر الشؤم الذي أمات حبيبته، وتركه ضائعاً.

في طريقه إلى كينشاسا، على ظهر سيارة مكشوفة، بها دابتان، توقفت له طواعية، وغازله سانقها الثلاثيني، بغمزة من عينه، وجد راكبين آخرين، رجلاً وامرأة، لم يسألها ولم يسألها، كان الرجل، يسعل بشدة، وكان سعاله مجرد

أنفلونزا عادية ومسالمة، ليست في جرم إييولا، وقد لاحظ أن المرأة التي كانت تجلس قبالة، على دكة حديدية، مضافة للعربة، تتوجع بشدة، ويدها على بطنها المتكور، ولكن للأسف لم يستطع أن يستنتج أبداً، أنها في الشهر الأخير من الحمل، وتدهمها آلام الولادة الآن، والذي يسعل هو زوجها، ويذهب بها إلى أقرب مستشفى في كينشاسا...

ما خطر بباله في تلك اللحظة، شيء عن الشره، والإكثار في الأكل، والتخمة. كان لويس يفكر ورأسه على كتفيه، متجاهلاً إيجابيات الطريق الوحيدة، من حضرة ممتدة على مد البصر، ولا يكاد يشم فراء البهيمتين المربوطتين بجانبه على ظهر العربة، حين صرخت المرأة الحامل. عند تلك اللحظة، وهو يشاهد الماء والدم يتدفقان من تحتها، خطر بباله، أنه عاش مع امرأتين، في بلدين مختلفين، لكن لا واحدة منهما أنجبت أبداً. وقبل أن تنقش تلك الخاطرة عن ذهنه تماماً، أو تتوسع وتجر بعض الحشرات، وجد نفسه يقف متصلاً في الطريق، على تخوم كينشاسا، فقد أزل سائق العربة بعنف، وهو يغمز له بعينه أيضاً، وانطلق حاملاً المرأة إلى حيث تضع، لم يفكر نوا في غمزة العين كثيراً، وحتى لو فكر فلن يعرف خصوصيتها أبداً، لأنها في الحقيقة لم تكن صعلكة من سائق عربة مواش، بل مرض مزمن يصيب عصب العين، وليس ثمة علاج له، في ذلك الوقت.

الآن ضحية إييولا المفترضة في وسط كينشاسا العاصمة، بعد أن هبط من عربة نقل المواشي، ومشى على قدميه مسافة بشعة، قبل أن تتوقف له شاحنة قديمة جداً، يقودها كونغولي بعين واحدة. كان في شارع محترم جداً، ليس فيه شواذ ولا بائعات هوى متبرجات، ولا شحاذون ملحاحون، ولا أي أحد من دعاة التحرر من التبعية الذين تمنى إييولا كثيراً أن يلحق أرواحهم واحداً واحداً. كان الشارع ملكاً للساحر القديم، جمادي أحمد، ليس ملكاً حقيقياً بالطبع، ولكن الوجود اليومي المتكرر للساحر، وفي أي وقت، ومنذ سنوات طويلة، أوحى لأحد عمال البلدية المنبهرين بأدائه الكلاسيكي، أن يزيل تلك اللافتة المعلقة، التي تحمل اسم شارع زومبي، ويستبدالها بواحدة أخرى رديئة الخط، عليها اسم الساحر جمادي أحمد.

كان الساحر في تلك اللحظة، موجوداً، جمهوره لا يشبه جماهير السحرة المتميزين كثيراً، باعتباره فقد تميزه منذ سنوات طويلة، وقد فقد أيضاً في السنوات العشر الأخيرة، مشجعين يحق لأي ساحر حقيقي أن يفخر بحضورهم عروضه، فقد لاعبي الفريق الوطني لكرة القدم كلهم، لأنهم عرفوا سكة السفر والضياع في بلاد أشد جاذبية من بلادهم، وبعض السياسيين الطامعين في

السلطة، لأنهم أعدموا بلا محاكمات في الشوارع، وكان يمكن أن يفقد قرية من الدرجة الأولى، لرئيس إحدى الدول المجاورة، تأتي لمشاهدته عدة مرات في العام، وتدعمه بشيء من المال لولا أن جميع الانقلابات العسكرية ضد قريبها، لم تنجح قط.

توقف نوا عن سيره حيث أراد أن يتوقف بالضبط، وبدأ ينبهر بالساحر الذي يشاهده لأول مرة، بالرغم من أنه زار كينشاسا عدة مرات من قبل، في تلك اللحظة التي وضع فيها الأخير، داخل كيسه القماشي، حمامة ترفرف، وأخرجها من ثقب في جانب الكيس، أرنباً برياً، أدخله إلى الكيس مرة أخرى، وأخرجه من الفتحة دجاجة بيضاء غزيرة الريش.

صفق نوا بتوتر، ولم يسمع سوى تصفيقه وحده، ذلك أن الحضور ألغوا عادة التصفيق منذ زمن، وتواطأوا في ما بينهم، على أن لا يصفق أحد مهما توتر، إلا لو جاء الساحر بحيل جديدة، وهو ما لم يحدث حتى الآن... أخرج الساحر من قبعة الدمور التي يرتديها، ست شفرات حلاقة مسننة، ابتلعها في تأن، وابتلع خلفها خيطاً قطنياً أحمر اللون، توتر نوا حتى ارتعشت يداه، استمرت في الارتعاش وهو يلتقط فرنكاً كاملاً من جيبه، يلقيه في قرح الساحر شبه الخالي، وحين مد جمادي يده إلى حلقة، وأخرج الخيط وقد تضفرت فيه الأمواس بشكل متناغم، أعرب نوا عن اندهاشه الحقيقي، بأن ضحك، وأسرع للساحر، يحتضنه، لقد نسي أنه حزين على العشيقة الميتة، نسي أن في البلد قاتلاً مطلق السراح، وأن احتضان ساحر يؤويه الطريق، ولا تُعرف مصادر أكله وشربه، مخاطرة كبرى، لا ينبغي أن يتعرض لها أحد.

لا أحد يدري لماذا لم يتقبل الساحر العجوز تحية نوا العاصفة، لماذا تنرفز وغضب، وضرب الأرض بقدميه، وألقى عرضه وباقي فقراته التي كانت ستستمر حتى منتصف الليل، وابتدأ يلم خامات العروض، يرضها في صندوقه الكبير. عدد من الناس همهموا بتفسيرات محتملة، كأن يكون مستاءً من طعم طبخة الفاصوليا بالمرق، التي التهمها قبل بداية العروض في ذلك المطعم القذر، كأن يكون سخيلاً، ولا يحب الغرائب، أو أن العناق المفاجئ لذلك الغريب، أفسد حيلة جديدة، كان سيفاجئ بها جمهوره، المترقب للتغيير. من وجهة نظر إيبولا، كفيروس قاتل، يترصد نوا ويسعى للهجرة داخله، ليجزب القتل في بلاد أخرى، كان الأمر سواء، ابتسم الساحر أو غضب، لا يهم في شيء، وربما كانت فرصة أكبر، لبيتعد ذلك الغريب المرهق، يلتصق بمصابين، حتى تكتمل المهمة، تلك

اللحظة خاف إيولا بشدة، خاف أن ينهي نوا جولته فجأة، ويتجه إلى إحدى الحافلات العائدة إلى بلاده، ويفقده، ليبدأ البحث عن زائر جديد.

وقف نوا مصدوماً أمام غضب الساحر المفاجئ، يطالعه وفي عينيه اللتين بدأتا تستعيدان الحزن على إلينا من جديد، نظرة تساؤل. من المؤكد أن جمادي أحمد انتبه لتلك النظرة، من المؤكد أنه قرأها، وتجاهلها عن عمد، وتحدث بالفرنسية، مخاطباً نوا، الذي كان لحسن الحظ قد عمل خادماً عند عائلة فرنسية، أقامت سنين في أنزارا، قبل التحاقه بمصنع الألبسة القطنية، وهو يشير إلى صندوق أدواته الخشبي:

- في المرة المقبلة، اقرأ هذا التحذير جيداً، قبل أن تنبهر.

التفت نوا، والجمهور كله إلى حيث الصندوق الخشبي الكبير، الذي كتب عليه بخط أحمر، واضح:

جمهوري الكريم، يرجى عدم المصافحة أو العناق المباشر مهما كان السبب. الحقيقة أن هذه العبارة لم تكن جديدة، فقد ظهرت بظهور الساحر نفسه، لكن أحداً لم ينتبه إليها من قبل أبداً، وطوال تلك السنوات، لم يحدث ثمة انبهار عنيف كالذي انبهر به نوا الآن، لينتبه أحد إليها، والآن أصبح في حكم المؤكد أن العبارة ستشتهر بشدة، سيجري تناقلها، وربما استخدمها الناس في حياتهم اليومية، كأن يكتب أحد على ملابس نومه: زوجتي العزيزة، يرجى عدم العناق مهما كانت درجة رغبتك وغليانك، أو يكتب تلميذ فاشل بشيء من التحوير، على ورقة امتحانه: أساتذتي الأجلاء، يرجى عدم إسقاطي، مهما كانت درجة غبائي، وربما أوحى للسلطة بقوانين جديدة، تصدرها، وتمعن بها في كم الأفواه، كأن يكتب عنوان بارز على صحيفة محلية: بأمر من الحكومة، يرجى عدم الاحتجاج، حتى لو مات الشعب كله. كانت عبارة خطيرة، هكذا صنفها أحد الصحفيين الموجودين مصادفة، وإحدى الناشطات في حقوق المرأة والطفل، وأقسم أحد المناضلين الذي خرج لتوه من السجن، وجاء للترفيه عن نفسه، بضغط من هواء الحرية الجديد، أن لا يسمح لأحد بمصافحته أو عناقه، حتى ينتهي من ممارسة كل شعائره المؤجلة، ويسب السلطة، ويعود إلى السجن من جديد. بالنسبة للويس نوا، لم تفعل فيه العبارة، أكثر من اتساع نظرة تساؤله، وبالنسبة لإيولا القتال، فقد تملل بشدة، ذلك أن المطاردة طالت، وساكن أنزارا ما يزال بعيداً عن قبضته.

صحيح أن ذلك الشارع، شارع زومبي أو شارع جمادي أحمد، بحسب رغبة عامل البلدية المنبهر، كان محترماً، ولكن بشرط أن يكون الساحر موجوداً، وهو

ما حدث طوال سنوات طويلة، وقد كان لا بد أن ترتسم دهشة كبيرة على كل الوجوه، حين استوقف الساحر فجأة عربة كارو يجزها حمار، مزت بالمكان، رفع على ظهرها أدوات خداعه كلها، تلك المستخدمة يومياً، وتلك التي عَشش فيها العنكبوت، وغادر إلى مكان غير معلوم. لم يصدق الناس ذلك، تجفدوا في أماكنهم، موقنين بأنها الحيلة الجديدة التي ينتظرونها منذ سنين، بدأوا يتلفتون، يتابعون برك المياه الضحلة، ونوافذ البيوت المتهاكة التي تطل على الشارع، وينقبون في جيوبهم، لم يكن أحد يدري ما الذي يبحث عنه بالضبط. الذي يعرفونه، أنهم يبحثون عن شيء ولا بد سيجدونه.

في تلك اللحظات المترقبة العنيفة، وبغياب الساحر جمادي، استطاعت كائيني، الفتاة التي ولدت في إسطنبول خيل في الضواحي، من أب غير معروف، وعاشت منتهكة من ساسة الخيل، وملاك الأحصنة، ومراهقي المزارع المجاورة، حتى بلغت الثامنة عشرة، أن تتخلص من انفعالها، في البحث عن الحيلة الغائبة. تجولت بعينيها في الحاضرين الذين كانوا قرابة خمسين مندهشاً، وميزت نوا، بوصفه الأكثر بعداً عن الدهشة، والذي أعانها بشدة على تحويل جزء من وقت شارع زومبي، إلى وقت أئم، حين أجبر ساحراً متمرساً منذ زمن طويل، على مغادرة المكان. قرأت عبارة الصندوق بمشقة، لأنها تعلمت نزع الجسد أكثر من تعلمها أي لغة أو رطانة، وكان قاموسها اليومي شفاهياً بحتاً، قاموس الحديث العادي، إضافة للجزء الأثم من الحوار الذي يساعدها في الرزق، وقد تركت الريف منذ عام، وتنجول في كينشاسا بحتاً عن السياح، ترافقهم إلى أي غاية يريدونها، غالبية حيناً، ورخيصة رخص التراب في معظم الأحوال.

لم يعجبها لويس نوا كرجل يستوجب الإعجاب بوجهه وجسده، واحتمال وجود ثروة مخبأة في جيبه، لكنه كان الغريب الوحيد المتاح حالياً، والغرباء مهما تكسرت مجاذيفهم، وختل جيوبهم من المال، لا بد يملكون شيئاً ادخروه للسفر والعودة، والإقامة في البلد الذي يزورونه.

في تلك اللحظات، وهو يرى الفتاة تلتصق بإغراء، بظهر الضحية المرتقبة، ابتسم إيبولا المحلق في المكان، وهو يراها تقزب وجهها من الوجه المفصد بتلك الدوائر المقيتة، ضحك، وكاد يطلق قهقهة عالية، حين رأى الغريب يغادر برفقة الفتاة التي سكن دمها البارحة فقط، تابعتها حتى خرجا من شارع جمادي، وترنحا في حارات قذرة، وأزقة شبه مهجورة، ودخلا بيتاً من طابق سفلي، يعج بالصراخ والضحكات غير البريئة، ويخرج منه بين حين وآخر، سكارى بالكاد يقفون على أقدامهم.

انتهى الأمر إذًا، وأصبح لويس نوا، ساكن أنزارا الذي يزور الكونغو في رحلة حزن، ذلك الجسر الذي سيعبر عليه إيبولا إلى بلاد أخرى.

قبل توجهه إلى كينشاسا بأربعة أيام فقط، اختير لويس نوا رجل العام في أنزارا. لم يكن اختياراً حكومياً، توقع عليه السلطة البلدية، ويمنح بموجبه وساماً أو شهادة تقدير بخط متعرج، تُعلق على حائط في البيت، ولا شعبياً تسانده الجماهير الغفيرة في الشوارع، وتصفق له، ولم تكن هناك أصلاً مكرمة اسمها رجل العام، توزع هكذا ببساطة في أنزارا. إنهم مجموعة من زملائه العمال في مصنع الألبسة القطنية، اعتادوا تكريم أنفسهم سنوياً بأقل قدر من الفخامة، وأقاموا احتفال رجل العام، نكايّة باحتفال يوم المرأة العالمي الرسمي، الذي تنقلب فيه النساء إلى عقارب وحيات، يتمزدن على خدمة البيوت، وإرضاع الصغار، وتهينة فراش الزوجية الحميم، ويتنشرن في الشوارع والأزقة، حاملات الملصقات الدعائية، والنشرات المكتوبة حتى بلغات القبائل المحلية، يوزّعنها في كل بيت. وضع عمال مصنع الألبسة أسماءهم جميعها في لائحة طويلة، من المؤكد أن السنوات لن تسعها في أي حال من الأحوال.

في ذلك اليوم، طلبوا من لويس نوا أن يتأنق بقدر استطاعته، يستحم ويتعطر، يقص شعره الخشن، عند منقو نقوشوا الحلاق، ولا يسرف في الشجار مع امرأته تينا، لأنهم يحتجوا إلى صوته بالقطع، في خطبة أو وصلة غنائية، أو حتى شجار أثناء الاحتفال، يندلع لأي سبب من الأسباب. وكانت مسألة شجاره العائلي اليومي، الذي تحتل مواضيع شح المصروفات، والخيانة الزوجية، أغلب أسبابه، معروفة، ومثبتة لدى كل الزملاء تقريباً.

كان أنامي أوقيانو، وهو ستيني، من أصل كيني، ويقيم في أنزارا منذ سنوات بعيدة، وغير متزوج، ولم ينو الزواج قط، هو من اخترع تكريم رجل العام ذلك، ومن ينظمه سنوياً، ومن يفرض على لجنة الاختيار التي شكلها من عمال متقاعدین في منشآت شتى، ونساء عجائز لا علاقة لهن بأي شيء، آراءه الخاصة العصبية إلى أقصى حد، والتي لم يصبح بسببها رئيس عمال في مصنع الألبسة قط بالرغم من استحقاقه لتلك الوظيفة. ولم يحس أبداً، أن اختياره لنفسه، رجل العام، في أول تكريم أقامه منذ خمسة أعوام، ترفاً ليس من المفترض أن يحدث.

هذه المرة، كان الأمر مختلفاً تماماً، فقد أصر نوا، بطريقة غريبة، على أن يُكرّم في ساحة عامة من ساحات المدينة، خلافاً للركن المهجور في مصنع الألبسة الذي سمح صاحب المصنع، جيمس ريكال، بأن تقام فيه حفلات رجل العام، طوال السنوات الماضية، برغم عدم اعترافه بذلك الطقس. أصر على أن يحضر تكريمه، محافظ المدينة شخصياً، ولم يكن في الحقيقة ثمة محافظ في ذلك الوقت، ولكن مجرد ضابط إداري بسيط من سكان المنطقة، يتولى الشؤون البلدية، ويطلقون عليه المحافظ، تجاوزاً. لم يتأنق كفاية كما طلب منه، بسبب عدم وجود متطلبات الأناقة ولا مزاجها، في بيته. هو سرواله البني وقميصه الأخضر المشجر اللذان اعتاد ارتداءهما على نحو شبه يومي، وشال قطن أزرق اللون، يلفه حول رقبته باستمرار، وإن كان قد ذهب إلى منقو نقوشوا، وقص شعره، وأضاف الحلاق من عنده لمسة اعتبرها جمالية ومميزة، حين استخدم أحد أمشاط الحديد، ليفرق الشعر في الوسط، وبخيط رقيق، مرره

تباعاً على وجهه، أزال كثيراً من الأوساخ وأكياس الدهن الصغيرة، ولم يطلب أجراً باعتبار تلك الخدمة مهداة من عنده للمحتفى به. وفي الحفل الذي انتزعت له ساحة كان يستخدمها المتمردون على السلطة المركزية قديماً للثروة، ودفن تياريح الحرب المهلكة، والتندب على الخطب الحماسية الخاصة بفوائد انفصال الجنوب عن الشمال، قدمه الكيني أوقيانو، ليلقي كلمته، ويشكر كل من ساهم في تكريمه، ولم يلق كلمة على الإطلاق، تنحج قليلاً، حرك عينيه يميناً ويساراً وانسحب، وبالرغم من ذلك، اعتبر ما فعله كلمة صفق لها الجميع.

أهم ما حدث في تكريم رجل العام ذلك، هو أن لويس نوا منح وضعاً استثنائياً تلقى بفضله كثيراً من المصافحات الهامة من المسؤول المحلي، وغيره من سلاطين القبائل، الذين حضروا الحفل، تلقى عدداً من قوارير العطور الرخيصة، ومضادات الصراصير والفنران، وزجاجة خمر محلي قوي المفعول من ماركة «الجن الأزرق»، ومنح شيئاً من المال الذي كان حصيلة تبرعات جمعت من زملائه، وأصبح بإمكانه أن يسافر قريباً إلى الكونغو، ليرقد يومين ملعونين في أحضان ألين، أو إيلنا كما كان يسميها، وهو ما لم يحدث أبداً، لأن فاجعة موتها وصلته، وهو يستعد للسفر، وسافر بذلك الحزن الكبير الذي بكى به على قبرها.

لم يعد نوا إلى أنزارا في ذلك اليوم الذي دخل فيه إييولا دمه، كما كان يتوقع شخصياً، وتتوقع امرأته المهجورة عاطفياً، وصاحب مصنع الألبسة الذي أدرجه في وردية عمل في اليوم التالي مباشرة. كان تحت ظل المتعة الشوارعية الجديدة، في البيت الطافح بالفجور والضحكات غير البريئة، وتحت رحمة شيطانتين، أحدهما كانيني التي تميته متعة، وإييولا الذي لم يسكن دمه فقط، لكنه تناسل إلى ملايين النسخ التي بدأت تعمل بجدارة، وإن كان ثمة قلق، أن لا يعود الغريب إلى دياره، وينزف أحشاه حيث يفجر، وتتجعد قضية الهجرة لدى القائل الرهيب، ريثما يعثر على ضحية جديدة.

في اليوم الثالث، ومع بدايات الصباح غير المنعشة، في طقس حار ولزج، سلمته كانيني ورقة مكتوبة بفرنسية في غاية الركاكة، عليها ديون متراكمة عند بقال في الحي، وجزار وبائع خمر، وسائق عربة للأجرة، وضعلوك معروف اسمه ليو، كان يدعي حراسة بنات الهوى المتسكعات في اليوس، لقاء أجر شهري، ولم يحرس طوال تاريخه في هذه المهنة أي امرأة. شرحت كانيني للويس نوا بتأناً شديداً، وبإغراء مستهلك، حاجتها للخلاص من محتويات تلك الورقة، في أسرع وقت ممكن، حتى تتفرغ لإنعاشه أكثر وفوجئ ساكن أنزارا الذي لم يعد حزيناً، ولا دماع العينين، أنه لا يستطيع حتى أن يريحها من أعباء سطر واحد في الورقة، بسبب شح الإمكانيات. إمكانيات جيبه الفقير، غير المعد جيداً لمثل هذا المهرجان، وإمكانيات رجل كهل، ليس من المفترض أن يكون طرفاً في نزوات بهذا الحجم. طلب منها أن تمنحه بضع دقائق، حتى يعود بالمال من صديق يسكن بالجوار وصدقته، لا بسبب لهجته الجديدة وهو يخاطبها، ولا بسبب تقفها المفرطة بأنها امتلكت قلبه وعرق إبطيه، ولكن لأن لا خيار آخر لديها، سوى أن تصدقه. منحتة وقتاً غير محدد، وساعدته على الوقوف وارتداء ملابسه، ورافقته حتى باب البيت، وعادت تنتظر.

حين جلس نوا في حافلة العودة إلى بلاده، وتأكد من أن جواز سفره موجود في جيبه، وأن في ذات الجيب عدة فرنكات ربما يمنحها لحارس حدود سخي، موجودة أيضاً، تذكر

فجأة أن ثمة إعلانات كانت تملأ شوارع أنزارا، عن زيارة عازف غيتار كونغولي أعمى، سيحيي حفلاً كبيراً في الاستاد الرياضي الوحيد، وحين تلفت في الحافلة، شاهد روائي مونتي خلفه مباشرة، يترنر مع الفتاة التي شاهدها معه عند باب المقبرة، وحين أكمل دهشته وعاد إلى وضعه الطبيعي، مستقيماً بوجهه إلى الأمام، سمع عازف الغيتار يردد: معاً إلى أنزارا أيها الحزين، صاحب الشال الأزرق، يا للمصادفة الغريبة...

وفي الواقع، إن هذه النقطة بالذات، نقطة الحزن والشال الأزرق، كانت معتمة في فطنة العازف، لأن لويس نوا، لم يكن حزيناً هذه المرة، إضافة إلى أنه ترك شاله الأزرق عند كانيثي. لم ينسه، ولم تسرقه الفتاة، هو وحده الذي تركه.

لم يكن مصادفة أبداً، أن تحدث تلك العلاقة الحميمة بين لويس نوا، وزوجته تينا أزاغوري، بعد عودته من كينشاسا مباشرة، وبعد أكثر من عامين من الهجر العاطفي المتقن، من كلا الطرفين. تينا نفسها، أرادت تلك العلاقة، واستعدت لها بقوة، وأرادها لويس نوا، الذي لم يتنفض بعد من طعم كانيبي، وليالي البيت الكونغولي المستعر، ولا من فالض الهرمونات التي ضج بها جسده، وقرر في لحظة ارتباك كبيرة ومهينة، أن يسعى لاسترضاء تينا بأي شكل، ويعلم يقيناً، أنها لا تنتظر عودته، كما تنتظر النساء عودة أزواجهن المسافرين، في أي حال من الأحوال.

كانت تينا في السابعة والثلاثين، ليست جميلة أيضاً، لكن وقعها على العيون، كان أطف كثيراً من وقع زوجها نوا، وبما قدر لها أن تدخره من مهنة بيع الماء في الشوارع، التي قضت فيها سنوات بلا حصر استطاعت أن تتأق إلى حد ما، تزين شعرها بالأشرطة والخرن، والفواريص اللماعة، وتضع قليلاً من المرطبات والمساحيق على وجهها، وأيضاً تكحل عينيها متى ما أرادت أن تمنح العينين، بعداً آخر.

استطاعت أن تسهم في تأسيس بيتها، بما يجعله مناسباً ليعيش فيه أحد، برغم فقره. لم تحب نوا حقيقة، ولم تفكر أن تحبه في أي يوم من الأيام، حتى حين كان الحب في أنزارا، مرادفاً لحياة الفتيات الجميلات وغير الجميلات في نفس الوقت، أن يعشن أكثر قصص الحب غرابة وهمجية، يعشقن صورة لمتهمرد أرعن مطلوب للعدالة، وزعتها السلطات الحكومية في الشوارع، يعشقن كلب صيد سريعاً من فصيلة السلوقي، أو «الأزاواخ»، يتفافز في الغابات، ويأتي بالفنالم المجيدة، ويعشقن حتى أصوات الدمى المتحركة التي يصادف أن تقدم لها عروض خاصة، من فرق زائرة إلى أنزارا، وبعضهن، من اللاتي لم يبلغن سن النضج بعد، تزوجن في الخيال، من «النعلب الماكر»، الذي كانت قصصه في خداع الأراب، تأتي مصورة في كتب الأطفال، من الدول المجاورة التي تملك إمكانية أن تعد قصصاً لمتعة الأطفال بعدد من اللهجات الأفريقية. لم تحبه حقيقة، وتزوجته حين كان خياراً وحيداً بانساً، لم تتوقع أبداً، أن تعقبه خيارات أخرى، ذلك أنها اقتربت من الثلاثين، وأصبح في حكم المؤكد، أنها ستظل بلا زواج حتى تموت.

في عصر ذلك اليوم البعيد، ومنذ أكثر من سبع سنوات، اعترضها لويس نوا فجأة. كان ما يزال شاباً في نظر المجتمع، لكن شبابه مخنوق بتلك الخلقه غير المريحة، وفصداً جبهته التي كانت أكثر غطرسة من الآن، لم يكن يشبه المحاربين العظماء برغم الطول والعرض، وضخامة الكتفين، لأن المحاربين العظماء، لا يتدنون للنساء، حتى لو ماتوا فيهن رغبة. لا يشبه الصيادين، لأن للصيادين نبرة صوت باهرة، ومشيات تشبه مشيات الغزلان التي يعطاردونها في الغابات، ويأتون بلحمها، غالباً، باختصار شديد، كان يشبه نفسه فقط، وحين تفكر تينا في أن شخصاً ما يشبه نفسه، تستغرب بشدة، تتساءل:

هل هناك من لا يشبه نفسه على هذه الأرض؟

كانت برفقة أمها في ذلك اليوم، قادمتين من بئر بعيد، تضعان صفائح الماء أمامهما، وتجلسان على مقعدين منخفضين من الخشب المنسوج بالحبال، ويأتي بين حين وآخر، شخص عطشان حقيق، أو يتوهم العطش، لتعرف إحداهما، وتسقيه لقاء دراهم قليلة، من إناء من الألومنيوم، منقوب في رأسه، وموصول بخيط طويل إلى صفيحة الماء، لضمان عدم سرقتها، وإمكان أن يفر به أحد بعيداً. الحقيقة أن مهنة بيع الماء في الشوارع، ليست مهنة مجيدة على الإطلاق، هناك مهن كثيرة أرفع منها، مهن تشبهها وأخرى أحط منها، ورغم ذلك كانتا تعشقانها وتعملان فيها بجد. القدر وحده من يوزع المهن، ولو سئلت تبنا أو أمها ذلك السؤال التقليدي: لو لم تكوني بائعة للماء في الشوارع، ماذا كنت تفضلين أن تكوني؟ لردت أو ردت أمها، أو الاثنتان: بائعة ماء في الشوارع.

المشكلة ليست في الحر والبرد، والبيوت أيضاً حارة صيفاً وباردة في الشتاء، ليست في مطر خط الاستواء المستمر، والبيوت بيناتها العشوائي، لا تحبس المطر أبداً. ولكن في الشارع نفسه، في المناخ المرزي الذي يفري بالتحرش بالمرأتين، وفي التواطؤ الإنساني الذي يحدث معظم الأحيان، أن لا يستجيب أحد لاستغاثة تصدر أمامه وعلى مرأى ومسمع منه.

وقف لويس نوا، الشاب الذي ترك الخدمة آنذاك، عند أسرة فرنسية تقيم في أنزارا، والتحق بمصنع الألبسة الجاهزة الذي افتتح منذ أسبوعين فقط، أمام المرأتين، لم يكن عطشان، ولا يتوهم العطش، فقط أقسم داخل نفسه، بلا ضرورة لذلك القسم، أن يتزوج اليوم، من أول فتاة يراها مبتسمة، وكانت تبنا مبتسمة في تلك اللحظة، فقد تذكرت أنها ترتدي سروال أمها المنقوب في عشر جهات، شدت قميصها جيداً إلى جسدها، وابتمست.

قال نوا بهدوء شديد، وبلا أي رنة ضعف أو استهزاء، مخاطباً تبنا أزاقوري:

- لقد قررت أن أتزوجك اليوم، يا فتاة أياً كان اسمك، أو قبيلتك، لدي عشة صغيرة في الجوار، وبقرتان لا بأس بهما، ووظيفة حديثة في مصنع، ويمكن جداً أن أنجب منك أولاداً... هل يرضيك هذا؟

قالت: نعم.

وأيضاً بنفس الهدوء الذي سمعت به كلماته:

أتزوجك اليوم... هيا.

في مساء نفس ذلك اليوم، تسلمت عائلة تبنا المكونة من أمها، وخالها ماجوك، الراقص في فرقة أنزارا للفنون الشعبية، وروح أبيها التي يعتقدون أنها ما زالت ترفرف في البيت، وتلقى الفرح والحزن، ويمكن أن تتحاور في الجوار، تعزي في ميت أو ترقص في عرس، تسلموا بقرتي لويس، ودراهمه القليلة، وتوافه أخرى، سفيت مهراً بصعوبة، وأقاموا طقس عرس متواضع للغاية، رقص فيه الخال ماجوك وعدد من أفراد الفرقة التي يعمل فيها، وغني فيه للأسف الشديد، الكيني أنامي أوقيانو، الذي لا يملك حتى صوت نانج في الجناز، ولم يكن في حياته سوى مرتين فقط، تلك المرة، ومرة أخرى، حين اخترع تكريم رجل العام، واختار نفسه، وكزمها بعد ذلك بثلاث سنوات.

كانت حياة عادية، تلك التي عاشها الزوجان، لم تتوقف هي عن بيع الماء في الشوارع، حتى أثناء فترة شهر العسل، ولم يتوقف هو عن محاولة خيانتها، بعد فترة وجيزة من الزواج.

حتى خانها بالفعل، حين عثر على تلك الفتاة ألين، خادمة غرف غير متطلعة، في نزل حفير يشاه الزوار الفقراء في كينشاسا، لم تنظر إلى وجهه كثيراً، ولم تسأل عن ماضٍ أو حاضر، وانسأقت له، وبالرغم من أن تينا لم تر تلك العشيقة أبداً، ولا تخيلت أنها سترأها في يوم من الأيام، إلا أنها كانت تعرفها جيداً، تعرف اسمها، وتقاطع وجهها، وقياس نعلها، وعدد اللقم التي تملأ معدتها في كل وجبة. تعرف كيف تستقبل الزوج المخادع، حين يأتيها محفلاً بالرغبة والطعام الجيد، وكيف تودعه حين يرحل، وما لون الملاءة التي تفرشها على سرير الخداع في كل مرة، ونوع العطر الذي تتعطره، وعرفت بموتها على يد ذلك الساحر الذي وزع الموت في قرى الكونغو ومدنها، لم تكن للأسرار قديمة كبيرة في تلك المناطق، كان هناك من يعرفها، من يغتصبها، ومن يوصلها حتى أبواب الذين تهتمهم. الشيء الوحيد الذي لم تسمع به تينا، هو إيولا القاتل، ولو كانت قد سمعت به، لما راودتها تلك الأفكار التي تراودها الآن، ولقيت زوجة مهجورة إلى الأبد.

كان موت الكونغولية إيلينا، بمثابة كوة انفتحت لها في عتمة علاقتها بزوجها، ستحاول أن تستغلها إلى أبعد حد. تحاول الولوج عبرها وتحبب تلك العلاقة. فكرت أن لويس نوا خانن بالفعل، والخانن في عرف أي زوجة، حتى لو لم تكن تحبه، وصدمت به، يظل خانناً حتى النهاية، لكنها ستحاول. وفي جلسة مغلقة ضفتها، وجارة خدعت أيضاً، ومات زوجها وهو غارق في الخديعة، تمت تعرية نوا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، أشارت الجارة إلى طفولته البائسة في عشش الكرتون، أحقر حي سكني في المدينة، وأمه التي كانت تلقيه في المزابل حتى يأكل، وإخوته الذين كانوا لصواً بلا حياء، يسرقون حتى ثياب الفسيل من أي حبل يجدونه، وهي أشياء لم تكن تعرفها تينا، وترذلت كثيراً في تقبلها، قبل أن تخضع للأمر الواقع، وتهز رأسها موافقة، والحقيقة أن الجارة نفسها لم تكن تعرف تلك الأشياء عن نوا، لكنها تخيلتها من دون أي وجه حق. تحدثت الجارة عن عمره الذي اكتهل كثيراً، وعن خلقته التي زادها العمر بؤساً، بشيء من الحرج، وبعد عدة أسئلة وأجوبة من تينا عن أشياء لا علاقة لها بالخيانة الزوجية، اقترحت أن تبدأ تينا عمراً جديداً، تحاول فيه أن تزرُق بطفل. وتوقعت أن يمر زمن طويل، قبل أن يعثر رجل بمواصفات نوا، على امرأة جديدة، ويكون ساعتها قد انتهى كرجل، إلى الأبد. تلك النظرية لم تكن جادة، وليست قائمة على أي أسس علمية، خاصة أن تينا لم تكن تعرف حجم رجولة زوجها الحالية، إن كانت كما هي قبل عامين، أو ثلاثة، أم اضمحلت، أو حتى ذهبت إلى الأبد. تسمع عن جاذبية العمر المتقدم عند بعض الرجال، مهما كانت ظروفهم، ولا تستطيع أن تجزم بصحتها أو عدم صحتها. لكن نظرية الجارة أعجبتها في النهاية، وقررت أن تنفذ.

جريت أولاً أن تستخدم العواطف، من أجل أن تصبح حارة ملتبهة عند عودته، ونجحت إلى حد ما في العطف على قطة مشردة، وكلب ضال، واشترت أشياء لا ضرورة لها إطلاقاً، مثل أقلام الرصاص، وطواقي السعف، والمناديل المصنوعة من البولستر، من طفلة يتيمة كانت تعرضها في الشوارع، وهي تبكي.

جريت دموع الفرح التي نسبتها منذ مدة، وبكت بشدة، من حادث روتيني، وهي أنها تعشت في ذلك اليوم، في بيت أمها، ولطالما تعشت من قبل مئات المرات، بلا دموع فرح.

لم تكن ثمة طريقة تتذكر بها كيف تلتقي زوجاً عائداً من سفر، وكيف تتكهن بردة فعله، ومن ثم فإن احتضان أعمدة البيت الطينية، أو أشجار البايي المشتتة في الشوارع، سيكون عبثاً وبلا أي جدوى، لأنها بلا روح.

انتهت من تحضير عدة أصناف غذائية يحبها، ولم تطبخها له منذ عدة أعوام، أعادت للسريبر الخشبي الفقير، ملائه الحمراء التي فرشتها وهي عذراء في ليلة زفافها، ومن سوق المدينة الممتلئ بالعطارين من عرب الشمال، الذين يخنقون أنفاس الجنوب منذ أجيال، اشتريت ما يجعل الجسد الأنثوي، ليناً وطرياً، ما يجعل شيئاً شبيهاً بالعذرية، يعود من جديد، وما يجعل جو البيت مهما كان تعساً وفقيراً، وقليل الإمكانات، جواً حميماً إلى أقصى حد. وحين انتهت من كل ذلك، طلبت من أمها أن تمنحها إجازة قصيرة من مهنة بيع الماء في الشوارع، سفتها: إجازة استعادة لويس نوا، ولم تنس برغم ذلك، أن تفكر في صد محتمل، فأضمرت في سرها اسماً آخر: إجازة إلغاء لويس نوا إلى الأبد، حتى إذا ما حدث الصد والنفور، وعملت بجلافة، استخدمته.

لم يعد نوا في يوم الانتظار الأول ولا الثاني، فجلست في اليوم الثالث، وقد ازدادت تصميماً، على أن تقتله حميماً، لو عاد في ذلك اليوم.

من ناحيته، كان لويس نوا متعاوناً مع أفكارها الإيجابية، من دون أن يدري، إلى أقصى حد، وكأنها كانت أفكاره هو، وفي الوقت الذي كانت تيسر فيه كل السبل لملاقاته، بما في ذلك إزالة عدد من الحجارة الصلدة التي كانت قد رصتها في مدخل البيت، على أمل أن يتعثر بها ذات يوم، ويرتج رأسه، كان نوا قد تذكر ملاءة العذرية الحمراء، وعطور العرس الملتهبة التي شتمها في ذلك اليوم البعيد، وكماليات عديدة، بعضها صادفه بالفعل في بداية حياته، وبعضها تخيل أنه صادفه، وفي الحافلة التي تقترب من الحدود بعيداً عن الرقابة الطبية، وقوانين الحجر الصحي المتعارف عليها بين الدول، لم يتحمس كثيراً لترترة عازف الغيتار الأعمى، روائي موثني، الذي كان يحلم بصوت مرتفع، ويحصي بلا تردد ولا خوف من الخسارة المحتملة، إبراد الحفل الكبير الذي سيحييه في أنزارا، كانت أكثر جملة ملهاً نوا، وتمنى لو كانت بعوضة ليقتلها ويستريح، تلك التي لم يتوقف العازف عن إطلاقها:

- صف لي جمهور مدينتك من الجيل الجديد، أيها الحزين... منذ سنوات لم أزر بلادك.

في البداية أجابه نوا باحترام شديد، حذثه عن ميوله الشخصية نائياً بشدة أن يكون من عشاق الموسيقى الحديثة، أو أي موسيقى أخرى، وأن ما يعرفه عن الأجيال الجديدة صفر، لأنه تزوج متأخراً، ولم يلد عيالا ينخرطون في أي جيل، ليعرف شيئاً عن الميول، والراديو الصغير الذي يملكه، خضصه لسماع الأخبار، وإن كان قد تركها هي أيضاً، لأن أخبار العالم لا تسر.

بدأ أن عازف الغيتار قد اقتنع، لأنه سكت، وفي الواقع لم يقتنع، هي زفرة حزن طويلة، أسكته وعاد ليرتد الجملة مجدداً:

- صف لي أي جيل تعرفه، أيها الحزين... صف لي متذوق الفن في بلادك.

غير نوا مكان جلوسه، واتجه إلى مؤخرة الحافلة المكتظة بالمسافرين، ليواصل السفر واقفاً، ويصطاد تخيلات جديدة في شأن علاقته بتينا، وفوجئ بأن العازف قد نهض بدوره،

توكأ على فتاته المرافقة، والتصق بجانبه، ليواصل مثله السفر واقفاً:

- قل لي... هل ستنفذ تذاكر حظلي، يا ساكن أنزارا؟

أراد نوا أن يخبره باسمه، حتى يقلع عن لقب الحزين، أو ساكن أنزارا، أسخف لقبين يلحقان به، وطرده الفكرة من ذهنه، كان إخباره بالاسم، يعني أنه يستمتع بمرافقته، ولم يكن مستمتعاً على الإطلاق.

حين وصلت الحافلة إلى نقطة الحدود، وبدأ المسافرون إجراءات إنزالهم من قبل الحراس وموظفي الجمارك، من نزع للقمصان والسراويل، وتفتيش الشعر، والجيب الجسدي الواقع في المسافة بين التدينين عند النساء، لاحظ نوا أن روائي مونتي، هو الوحيد الذي عبر بلا إنزال، بينما أدخلت مرافقته إلى غرفة صغيرة لتفتيش جيب نهديتها كما يبدو، ومن سوء الحظ أنه لم ينتبه إلى تلك المعاملة الرقيقة التي حظي بها، عاد إلى ترديد جملة، بمجرد أن تحركت الحافلة، متوغلة في المدينة.

لم يذهب نوا إلى بيته مباشرة، كان الليل قد استلقى داكناً على ظهر المدينة، أنارت كهرباء المدن البعيدة، شحيحة الضوء، ما استطاعت إنارته، وبدت الشوارع ميتة وشبه خالية من الأرواح التي تنعشها. ذهب العازف روائي بصحبة منظمي حفله الذين استقبلوه بعربة جيب صغيرة، كانوا ثلاثة متحمسين بشدة، يتحدثون الفرنسية، والكونغولية والسواحلية، لكن الفرنسية هي لغتهم المفضلة، بحكم نشأتهم في باريس، كانوا يلقون بلقم الأمل دسمة في سمع العازف الذي اختنق فرحاً، أخرج غيتاره من جرابه الجلدي، وزرع أغنية راقصة في موقف الحافلات، ومضى من دون أن يعترض طريق أحد.

في السوق الذي أصبح شبه مقفر، التقى نوا بصاحبه الكيني أنامي أوقيانو، كان حيويًا كالعادة، لكنه بدا منزعجاً من غياب نوا غير المبرر، وأسمعه جملة حادة، من تلك التي يرددها أصحاب العمل في حق عامل غير منضبط، قال له: تعود عليها من الآن، حتى إذا ما سمعتها غداً صباحاً من جيمس ريك، في المصنع، اعتبرتها مستهلكة، ولا تصدم. ثم صافحه وذهب. الشيء الذي لا يعرفه العاملان الصديقان، أن إيبولا الرهيب كان يقهقه في تلك اللحظة، لأن وجهيهما كانا قريبين من بعضهما، وأن نوا عطس بعمق في تلك اللحظة، ففرت ملايين النسخ من القاتل، إلى جسد الكيني أوقيانو.

تسكع نوا قليلاً في السوق شبه المهجور اشترى عقداً رخيصاً من الخرز الأحمر هدية لتينا التي لم يهد لها شيئاً منذ زمن، جلس قليلاً على مقهى، وهو متوتر، نهض مترشحاً، خرج من السوق، وعرج على خمارة معروفة، اشترى نصف زجاجة عرق قوي، وقبلته صاحبة الخمارة في قمه، وهي سكرانة، وسط قهقهات إيبولا، وحين وصل إلى البيت ولم يعثر على الحجارة الصلدة التي طالما أعاقته دخوله، وكادت تسقطه في ليال عديدة، ابتسم، واتسعت ابتسامته وابتسامه إيبولا أيضاً حين عثر في داخل البيت، على كل المشهيات التي فكر فيها، والتي لم يفكر.

كانت إعلانات حفل العازف الأعمى المشتتة في الشوارع، قد تعرضت لاعتداءات شتى، إما من أطفال اعتادوا اللعب بكل شيء، حتى سراويل أبائهم، وحمالات صدور أمهاتهم، أو كبار يهودون نزع المصقات من الحوائط، واستبدالها بملصقات أخرى، تحوي رسوماً عارية، ونكاتاً خليعة، وأشياء أشبه بذلك، وفي بعض الأحيان، يتركون المصقات كما هي، لكنهم يعثنون بمحتوياتها، وقد شاهد نوا في ذلك الصباح الذي حوله المزاج المنتشي، برغم الحرارة القاسية، إلى صباح وردي ومنعش، وجه العازف في كثير من الشوارع، وقد نبتت له لحية بيضاء، أو طالت أذناه بشكل بذّي، أو استبدلت نظرات عينيه الهائمة، بنظرات كبيرة وفضولية. وفي ملصق بالحجم الطبيعي، بالقرب من مصنع الألبسة القطنية الذي يعمل فيه، يبدو أن عاملاً موهوباً اجتهد طوال الليل، ليستبدل ملابس روائي الزرقاء الأنيقة، بأخرى رخيصة جداً من إنتاج المصنع نفسه. كان نوا يحس بإعياء طفيف، ثمة صداع بالرأس والعينين، ثمة رعشة خفيفة، ورشح بالأنف، وألم في الركبتين، ولاحظ وجود بقع حمراء على إحدى يديه، وتأكد له أن كل ذلك، من مضاعفات المتعة التي ظل يتناولها عدة أيام، بين جسد كائني الجائع المحترف، وجسد تينا الذي ارتد صيباً بعد أكثر من عامين، من الخمول. كان مستغرباً بحق، ويفكر في شبطنة النساء، وفي كيفية استعادته لحياته الأسرية بلا أي مجهود يذكر، ولم يكن يظن أنه سيستعيدها أبداً، حتى عقد الخرز الأحمر الذي اشتراه، لم تكن ثمة ضرورة لشرائه، وقد نيهته تينا في آخر الليل إلى ثقل وزنه، وأنه قد زاد بصورة مجرمة، لم تنتبه إليها قبلاً، لكنها برغم ذلك، كانت منتعشة، وتحترم عودته جداً، لدرجة أنها تفكر أن تنجب طفلاً، يضيف جديداً إلى ركود البيت.

تنجب طفلاً؟

ضحك نوا في سره، وضحك إييولا الذي عبر سلساً إلى جسد الزوجة المجهز للفزو بمئة حملة نسائية، عدة أيام فقط، وينتهي كل شيء، وإلى أن تكتشف سلطات هذه المنطقة المحرومة من سرعة البديهة، بحكم بعدها وبدائيتها، وتسلط عادات الجهل على مجتمعها، يكون القاتل الرهيب قد قضى على ثلث السكان، بلا أي مقاومة تذكر.

يفكر نوا في مسألة الطفل التي لم تحدث أثناء سنوات الخصب الأولى، ويفكر إييولا، أنها لن تحدث أبداً، حتى لو كان ثمة خصب موجود في عروق الرجل أو مبيضي المرأة.

الأفكار الأخرى التي راودت نوا، واعتبرها هامشية للغاية، هي تيريراته التي يجب أن يبرزها أمام صاحب العمل الفظ في شأن غيابه، يعرف ويعرف جميع العاملين في المصنع، وربما ربع المدينة أو ثلثها، أن جيمس ريباك، كان من متمردى المنطقة الخطرين، قبل أن يتصالح مع السلطة، برغم أنه يحمل شهادة عليا في هندسة النسيج من جامعة أوغندية، يحتفظون في أذهانهم بحكايات كثيرة، بعضها حقيقي صرف مثل قدرته الفذة على التخفي والتصعلك في الغابات المتشابكة، تصعلكه في حديقة أمنة، وشمه لخيانة الزملاء في التمرد بمجرد أن يقفوا أمامه، وبعضها مخترع، مثل امتلاكه حية من فصيلة الكوبرا، يمكن أن تتلع شخصاً بالغاً، بكل سهولة، أو شربه كوباً من الدم، قبل أن ينام في كل ليلة، وبالرغم من أن

مكافأته الشهيرة التي يمنحها لعمال مصنعه، كانت شحيحة للغاية، وتعد أقرب لصدقات التسول منها إلى مكافآت العمل، إلا أن الجميع كانوا متمسكين بالعمل في مصنعه، وبعيدين تماماً عن خرق قوانينه، بسبب البطالة التي يمكن أن تنالهم جميعاً لو تمردوا، ولطالما لوح بمناسبة وبغير مناسبة، إلى آلاف العمال المهرة في عديد من الدول المجاورة، الذين ينتظرون إشارة فقط، ليتروكو أوطانهم، ويتسلموا العمل عنده، وطوال سنوات عمل المصنع السبع، لم يحدث أي ارتباك، يمكن تصنيفه إضراباً أو تمرداً. كان المتبطلون يتزاحمون على وظائفه القليلة، والآباء يسزبون أبناءهم من فرص التعليم القليلة المتوفرة، تحت رعاية القساوسة الأوروبيين، وبعض المحليين المجتهدين، ويأتون بهم لـجيمس ريباك، وكان يوظفهم بكل سرور متناسياً تلك اللافطة التي كتبها بخط يده، وعلقها على مدخل المصنع، والتي تقول: لا لتوظيف الأطفال. وقد جذب مرة أن يوظف النساء بأجر أحمق كثيراً من أجور عماله الرجال، وفشلت تلك الحبكة غير المألوفة في أنزارا، لأن مجرد وجود امرأة في مستنقع وعر كهذا، مهما كانت درجة استرجالها، كان كفيلاً بشل الإنتاج، لا ازدهاره.

لم يكن هناك ود بين صاحب المصنع وعامله لويس نوا، الأمر ليس شخصياً بحتاً، والود مفقود بين الرجل وعماله كلهم تقريباً، يعتبرهم جوعى، يركعون أمامه، ليأكلوا، ويعتبرونه مستعمراً من جنسهم، أفسى كثيراً من أي استعمار حقيقي.

كانت السادسة تماماً، من ذلك اليوم، السادس من أغسطس عام ١٩٧٦، حين وصل إلى المصنع أخيراً. لم تكن المسافة من بيته بعيدة، ولم تكن في المدينة القاحلة الصغيرة، مسافة تعد بعيدة، حتى للمسنين، ومرضى غضاريف الركبتين، وضعف أعصاب النخاع الشوكي المسيطرة على حركة المشي. لقد اعتاد قطع تلك المسافة بشكل مريح وحيوي، ولم يحس أبداً بحاجته إلى دراجة هوائية أو حمار، أو عاطل مستأجر، يحمله على ظهره، كما يفعل بعض الكسالى، وكان جيمس ريباك قد وعد الجميع منذ ستة أعوام، أن يوفر حافلة كبيرة من طراز «تانا» الهندي، أو «جوجوجوقو» اليوغندي لنقل العمال في كل وردية، لكنه لم يف بوعده أبداً، وظل ذلك الوعد معلقاً في السنوات، غير موفى به، ولا يجرؤ أحد على مجرد التفكير في تذكير صاحب المصنع به.

لم يفاجأ نوا حين وجد ريباك أمامه، بجسده الذي يتطابق تماماً مع الأغنية التي صاغتها إحدى البنات، في زمن قديم، ووصفت فيها رجولة أسد محارب، زار في غابة، ففرت هوام الأرض مرتعبة، بوجهه الذي كأن السلطات الحكومية استلقت تقاسيمه القاسية، حين نحتت تمثالاً اسمه الشر، غرسته في وسط المدينة، أيام التمرد، وأزيل بعد المصالحة الوطنية الأخيرة، التي لم يكن ريباك طرفاً فيها، لأنه صالح وحده منذ سنوات، ولم يفاجأ أيضاً حين اشتعل في وجهه، فقد عثر برغم انشغاله في محنة الشيع العائلي الذي عاد بعد سنوات طويلة من الجوع، وقتاً كافياً ليتدرب على الجمود، وصد الغضب، وترديد الجملة الحادة التي علمه إياها الكيني أوقيانو، ليلة أمس، حتى أصبحت مستهلكة بالفعل، ولا يمكن أن تصدم أحداً بأي حال من الأحوال، وكانت لحسن الحظ، هي نفسها الجملة التي ردها ريباك، بلا زيادة ولا نقصان، فقط كان الألم في ركبتيه يشتد، ويحس برغبة عنيفة في القيء:

- لا تسمعي أي أعذار من فضلك يا نوا، واستعد للعودة مرة أخرى خادماً عند الفرنسيين، لأنني قررت فصلك عن العمل.

قد يمسكه من أذنيه، ويجره بالأرض، قد يعلقه من خصيته فوق مرجل يغلي، وقد يحوله إلى مقعد ويجلس على ظهره، لكنه لن يفصله عن العمل. هذا مؤكد، ويعرف تماماً أن قي عهده آلة قديمة مستهلكة، انتهت أيام عمرها الافتراضية حتى قبل أن يستوردها ريباك من منشئها، وأقلعت الشركة المصنعة عن إنتاج قطع غيار لها، باعتبارها من الجيل المخرف، ووحده نوا استطاع بمجهود غير عادي، أن يصنع لها عمراً جديداً، ومديداً ما دام في الخدمة، ولو فصل بالفعل، فما هي إلا أيام، حتى يمشي ريباك في جنازة آتته الميتة. لم يسأل نوا أبداً، من أين تعلم حرفة صيانة الآلات القديمة، وهو مجرد عامل نسيج بلا مؤهل، وخادم سابق عند الفرنسيين، ولو سأله، لما عثر على إجابة، لأن لويس نوا نفسه لا يعرف.

في بداية خصامه الطويل مع تينا، وبعد أن قص شعرها في إحدى الليالي الغاضبة وهي نائمة، لجأت إلى جيمس ريباك، طلبت من سعادته أن ينظر إليها بعين الرحمة، لم يفهم المتمرد السابق، معنى الرحمة التي تقصدها، وعرف أنها زوجة عامله نوا، من دون أن تخبره، لأنه شم رائحة شبيهة برائحته، تنز من جسد الأنتى الواقفة أمامه. لم يستسخر هيئتها الغريبة، وهي صلعاء، على العكس، أحب تلك الهيئة بشدة، ظننا حيلة تقرد جديدة، من حيل المرأة، وتمنى لو أن زوجته قد طبقتها، قبل أن تفر مع سائق شاحنة كيني، ولا تعود مرة أخرى. سألها وهو ما يزال خالي الذهن عن معنى الرحمة، وممتلئاً بفلسفة الغابات التي أخلص لها سنين

- تريدين أن أقتلك بسبب مرض ميؤوس منه، وأريحك من الألم؟

-لا... ردت، ولكن تعاقب زوجي لويس نوا على قضاة شعري وأنا نائمة.

وبالرغم من أن الموضوع أصبح الآن واضحاً، ولا علاقة له بالموضة والحيل النسائية، كان ريباك ما يزال منبهراً بذلك الصلع الفاتن في رأيه، قال وهو يرفق يده، بهش بها المرأة الباكية، وذباباً مزعجة تتحاوم حوله، في نفس الوقت:

- اذهبي من أمامي يا جاحدة... لقد صنع منك نوا فينوس حقيقية، لا تستحقينها.

بالطبع لم تفهم، ولم يفهم كل من حكمت له تلك الجملة بعد ذلك، بمن فيهم أمها، وخالها الراقص ماجوك، وأعضاء فرقته، وعدد كبير من الجارات، من هي فينوس التي لا تستحقها امرأة تعتقد جازمة بأن جمالها قد شوّه.

-الآن اذهب إلى موقعك وأنتج شيئاً، حتى أوقع أمر فصلك.

قال صاحب العمل، واستدار إلى مكتبه، وترشح نوا الذي أصبح في غاية الإعياء بالفعل، وقد نر منه العرق، متجهاً إلى موقعه. كانت الجملة الأخيرة، جديدة تماماً، لم يسمعها من قبل.

من المحتمل جداً، أن الساحر الكونغولي الشرير، الذي كان يوزع الموت في كينشاسا وما حولها من القرى والأرياف، قد اقتنصه، وتبعه إلى أنزارا، وما هي إلا ساعات قليلة ويموت لاحقاً بإيلينا، رفيقة العامين الأخيرين الدافئين، ومئات غيرها، شاهد قبورهم لينة حين بكى على صاحبته، وغرس الزهور البنفسجية ذات الرأس الأسود.

هكذا كان لويس نوا يفكر، وهو مشوش، وخائف، وضيق الصدر، ومحمول على سواعد زملائه العمال، يحاولون الوصول به إلى مستشفى أنزارا الفقير، وقد أبى ريباك أن ينقله بعربته الجيب القوية، لأسباب عذا وجيهة، وكانت في الحقيقة بعيدة تماماً عن الوجاهة، قال إن عربته ليست إسعافاً حكومياً، لتتلوث بالجراثيم والدم، وإن المريض ليس من عمال مصنعه، حتى يشفق عليه، لأنه وقع أمر فصله من العمل قبل أن يسقط.

نعم لقد وقع أمر فصله بالفعل، والشيء الذي لم يلحظه نوا حين دخل المصنع في ذلك الصباح، ولم يخبره به الكيني أوقيانو، حين التقاه البارحة في السوق، هو وجود آلة عملاقة داخل صندوق من الخشب، كانت جاهزة لتحل محل الآلة القديمة التي كانت تحميه، لقد قزر ريباك بناء على نصائح من موزعي ألبسته الفقيرة في الدول المجاورة، أن يتطور لينتج أكثر، ويلحق بالطلب الشديد على ألبسته، الذي زاد بازدياد الفقر في الدنيا، وأوصى بتلك الآلة التي وصلت وتنتظر التدشين.

كانت الحفى في أعلى درجاتها، رغبة القىء لم تكن رغبة، لكنها قىء حقيقي، فيه مرارة ودم، النزف على أماكن متعددة في يديه وقدميه، لا يحتاج إلى تدقيق لرؤيته، ألم الركبتين، شل القدرة على المشي، وبين حين وآخر، تأتي رعدة كبيرة، أو يغيب العقل عن الحضور.

اللوحه التي تركض في الشوارع، لم تكن غريبة، ولا لفتت أعين المارة كثيراً، وقد اعتاد الناس في أنزارا، وكثير من مدن الجنوب، مثل تلك اللوحات التي يرسمها المرض، وتلونها ريشات الحياة الخشنة، شخص محمول على السواعد في لحظة ضعف، امرأة تلد طفلها، وترضعه في المسافة بين بيتها والمستشفى، وفي إحدى السنوات، حين انتشر مرض الهستيريا بين النساء، وأصاب حتى زوجات سلاطين القبائل وبناتهم، ومعلمات المدرسة الابتدائية، وماشطات الشعر، وكثير من الأوروبيات المقيمت في أنزارا، كان عادياً جداً، أن تشاهد امرأة ترقص في وسط السوق كاشفة عن نهدين ملعونين، أو تشتم شجرة باباي صلبة، بنفس ألفاظ الحماسة التي تشتم بها زوجها في البيت، من المألوف جداً أن تطرق بيت بائعة هوى في الحي القذر، وتصفعك عدة مرات أثناء الطقس، باعتبارها في حالة هستيريا، وتشتري كوب ماء من امرأة مثل تينا أو أمها، لتروي العطش في يوم حار، فتدلق البائعة الماء على ثيابك، لأن مرض الهستيريا تمكن منها بشكل مخيف.

الآن اللوحه التي تركض في الشوارع حاملة لويس نوا، لوحه مأساوية بلا شك، ليس لأنها لوحه محتضر ربما يصل وربما لا يصل، ولكن لأن إيبولا الرهيب كان يلونها بنزق وشهوة، كل من كان في داخل اللوحه ميت لا محالة.

كان الكيني أوقيانو، الذي أصيب البارحة فقط، ما يزال متوهجاً، يتناسل الفيروس في دمه العجوز بضجة كبيرة، ولا يحس بتلك الضجة، وبصوته العصبي الذي حرّمه من منصب رئيس عقال يستحقه، كان يصيح، بأمر حاملي المريض أن يسرعوا: أسرعوا... أسرعوا...

يردد باقتناع تام، أنه رجل العام في المدينة، وينبغي إنقاذه بأي طريقة، وكانوا مسرعين بالفعل، لا يلتفتون للهاثم، ولا يعيرون أدنى اهتمام لتلك الحجارة التي شققت أصابع بعضهم، ومن ملصقات الدعاية المشوهة بفعل العبث، والموجودة في كل شارع، كان وجه روائي مونتّي يتابعهم بتلك النظرات الواسعة، التي لم يكن يملكها حقيقة.

أكد أن المدينة لم تكن خالية من العربات، هناك عربات بالفعل، عربات حكومية وغير حكومية، يملكها أفراد، لكن لم تكن لدى أي سائق شاهد تلك اللوحة، رغبة حتى في الاستفسار عن معناها.

في داخل بيت لويس نوا، كانت لزوجته أفكار أخرى، بعيدة تماماً عن الفزع والموت والدم، أفكار الخصوبة المتأخرة، احتمالات الحمل من عدمها، وماذا لو أن معجزة حدثت، ولم يضع استثمار الأمس القوي، وانفرت نطفة حقيقية في جسدها، بدلاً عن الاحمال الكاذبة التي انتفخ بها بطنها في سنوات الزواج الأولى، قبل أن يتعزف نوا إلى طرق خيانتها، ويهاجر بأشواقه إلى الكونغو؟ وما هي سوى بضعة أشهر، وتبتهج بصراخ طفل، وعدة أعوام ويصبح الطفل رجلاً الجديد الذي سترعاه، وتمكنه في المدينة، بعيداً عن مصنع جيمس ريباك واستعباده...

كانت قد جريت أدوية الخصوبة التي يتاجر بها العطارون العرب كلها في الماضي، جزبتها ولم تجد، والآن أخبرتها جاريتها التي خططت معها كل شيء، بأن في السوق أدوية أخرى، ظهرت في السنوات الأخيرة، أيام هجرانها، وأجدت لدى نساء كثيرات، فيهن واحدة حملت بثلاثة توأم دفعة واحدة.

ستتمطي قليلاً في ذلك الصباح مقلدة كسل العرائس المنفرسات في ليالي العمر، ستستحم بماء بارد حتى تنتعش، وستستخدم واحدة من صابون اللايف بوي، العديم الرائحة، والمعروف بإزالتة لبقايات الدنيا كلها، وفي النهاية ستكحل عينيها، وترطب وجهها، وتذهب للسوق، باحثة عن تلك الأدوية الجديدة، وحين يعود نوا من وردية العمل، مرهقاً، ويشكو من تصلب ساقيه بسبب الوقفة الطويلة، وينزع قميصه الذي في الغالب سيكون ملوثاً بالشحم غير القابل للتنظيف، لن ترحمه، ليس بسبب شهوة أو رغبة لا يمكن تأجيلها، ولكن بسبب الطفل الذي إن لم يتكوّن في ليلة البارحة، فلا بد أن يتكوّن اليوم أو غداً، أو في الأيام المقبلة، قبل أن يعود الزوج المخادع إلى محاولات الخيانة، ويعتز على ضائعة أخرى.

إيبولا الذي سكنها في الليل لم يكن غافياً، ولا غير مهتم بها، ويعرف عنه الاهتمام بأدق التفاصيل. هو في دمه وأحشائها ورنثها، وفي تلك العطسة التي كانت ستكون عادية جداً لولا وجوده، هو في حفرة قضاء الحاجة التي تتوسط البيت، في الأوعية غير المغسولة، وفي خطواتها التي خرجت بها الآن، متوجهة إلى السوق، ولولا أنها امرأة محترمة، وشعبانة عاطفياً، وفي مهمة محددة، لكان الآن في دم العطار العربي منصور، الذي تحزش بوجهها وكاد يختلس قبلة، حين دخلت دكانه الخالي من الزبائن، في ذلك الصباح المبكر، لتقترب أكثر من

أجولة الدواء البعيدة في عمق المحل. لم تزر العطار، ولم تصح في وجهه، فقط أبعدته برفق، لقد كان بقاؤها في الشوارع سنوات طويلة بغرض الرزق، قد عرقها على كل ما يمكن أن يهبط بمعنويات المرأة العاملة، اغتصبت عدة مرات، واكتأبت وتناست ما حدث، وبمرور الوقت، كان عادياً لديها أن تتعرض لكل الفواحش، وتتفادها من دون أن ترفع صوتها.

اشترت عدة غرامات من عشبة الملاك، وكف مريم، والماكا، وكانت كلها بترشيح من العطار المنهزم، بوصفها أحدث ما وصل إليه في ذلك المجال، أخبرها أن تخلطها بالليمون في ماء فاتر، وتشرب منها يومياً على الريق مقدار فنجان واحد، ولم يكن ثمة حرج أن يخبرها وثمة لذة برقت في عينيه وكادت تعيده إلى وضع التحرش مرة أخرى، أن تكافح لتربط زوجها إلى السرير، حتى يأتي الدواء ثماره. كان العربي يتحدث لغة قبيلتها المحلية، وهي تجيد اللغة العربية، ولم تكن هناك أي مشكلة في فهم عبارة الربط بالسرير المجازية، فقد قيلت باللغتين.

حين عادت إلى البيت، تحمل غنائمها، وتخبط على بطنها الخالي من الذرية، وتنادي في سرها: يا ماجوك... يا صغيري الجميل... لأنها افترضت أنه سيكون ولداً، وسفته ماجوك على اسم خالها الراقص في فرقة أنزارا للفنون الشعبية، قامت من فورها بتصنيع خلطة الدواء، شربت مقدار الفنجان الذي حذده العربي، بالرغم من أنها أفطرت قبل أن تخرج، وغالطت نفسها كثيراً بأنها تشربه على الريق.

الذي طرق بابها تلك اللحظة، لم تكن جاريتها المحرصة، ولا بائعة السلع المتشردة اليتيمة التي اعتادت أن تعطف عليها، في سبيل استعادة العواطف، ولا أمها التي تعرف أنها في إجازة استعادة الزوج المخادع، ومنحتها الإجازة بنفسها. لقد كان الكيني أنامي أوقيانو، وكانت المرة الأولى التي يطرق بابها صباحاً، ومن المفترض أنه يأتي لزوجها، والزوج معه في العمل.

في تلك المواقف غير المعتادة، درج الناس عامة على اتباع طريقة وحيدة للتعبير، وهي الفزع، وهذا ما فعلته المرأة الحاملة، فزعت من دون أن تسأل، وقبل أن يفتح الكيني فمه موضحاً سبباً معقولاً يأتي به في تلك الساعة، كان فزعها قوياً، لدرجة أن أذنيها انفلقتا تماماً في وجه السمع، واتبنى بينها وبين إيضاح الكيني حاجز من عدم الوعي، سقطت به على الأرض. وتغربت بالتراب.

- لم يمض لويس نوا بعد.

كان الكيني يصرخ، وتسمعه الحوائط الطينية المتهاكة، تسمعه حبال الغسيل المجزوزة في أطرافها، وذلك الطين المتكوّن من دلق المياه القذرة، لكن تينا لا تسمع، لم يكن أوقيانو يعرف شيئاً عن تلك الأيام الأربعة الأخيرة في حياة آل نوا. لا يعرف أن تينا انقلبت فجأة من زوجة كلاسيكية إلى أقصى حد، همها الرئيسي، إفناء الزوج غيظاً، إلى واحدة غير تقليدية بالمرّة، مهفتها الجديدة، هي إفناؤه عشقاً، وبمساعدة أعشاب العربي، حتى يخرج من صلبه طفل. معلوماته في هذا الصدد قديمة جداً، هي نفسها المعلومات التي يعرفها منذ عامين أو أكثر، ومؤكد أن دهشة ما قد أصابته، لأنه جاء ليخبرها بحالة الزوج الحرجة، ويتوقع زغاريد بعلو شجرة باباي، لا أن يراها تتمزغ في التراب، وتغيب عن الوعي، بهذه الصورة. وقد كان أوقيانو، يذكر دائماً في جلسات أصدقائه الليلية، وحين يتنفخ رأسه بعرق الذرة القوي، أو الفودكا الروسية التي تأتي أحياناً عن طريق المهربين وتجار الحدود، أنه لم يتزوج، ولن يفعل، بسبب

كلاسيكية المرأة، وحفاظها المميت على بنود الزواج غير المكتوبة، مثل بند الجحيم العائلي. لقد قرأ في شابه كتاباً موجهاً للرجال اسمه عشرون خطوة نحو السعادة، تحدث عن التغذية الصحية، والشرب غير الضار، والنوم المريح لساعات معقولة، والعمل اليدوي، وحتى ممارسة حفر القبور والعادة السرية، ولم يذكر شيئاً عن الزواج أبداً. يلومه الأصدقاء لأن اسمه سيندثر بعد موته بلا ذرية تبقيه حياً، ويذكّره بأن لويس نوا وكثيرين غيره ممن يواجهون الجحيم العائلي يومياً، ولم يلدوا ذرية، أيضاً ستندثر أسماؤهم بمجرد أن يموتوا.

أيقظها الكيني بصعوبة من حالة الإغماء غير المبرر في نظره، أراد أن يحملها على ظهره الذي ما زال قوياً كفاية، ليحمل امرأة تزن سبعين كيلوغراماً، برغم تجاوزه سن الستين، وخاف أن يتلفت الشارع، ويهمس، ويتحدث بصوت عالٍ. هنا اللوحة ليست معتادة مثل لوحة نوا المأساوية، فلن يصدق أحد أنها مريضة أو حامل مثلاً، وأنه صادف أن وجد في بيتها ساعة المرض أو المخاض، ليحملها على ظهره إلى المستشفى. تركها في حوش البيت الصغير، وأسرع إلى السوق ركضاً، ومن هناك استأجر عربة كارو، يجرها حمار، وامرأتين متيتتي بنيان الجسد والروح، اعتادتتا غسل الموتى من النساء ولقهن بشراشف الدفن، وعاد إلى بيت نوا، حيث تولت المرأتان المهمة. واتجهوا جميعاً إلى مستشفى أنزارا الفقير، حيث عامل النسيج المسكون بالقاتل الكونغولي الشرس، ملقى على طاولة الفحص، والطبيبان الوحيدان بالمستشفى، مشغولان بحالته وقد تركا مفصلاً كلويًا حاداً، عند رجل مسن، بلا علاج، ونصف طفل داخل رحم أمه، لمرمضة تحاول أن تجزه للخارج، ولسوء الحظ، كان ذلك الطفل، هو الذكر الأول لأحد سلاطين القبائل، وسيعد لخلافته قبل أن يرضع من ثدي الأم، ولو مات مختنقاً، لما بقي أحد له علاقة بمهنة الطب حياً في المدينة.

كان إيبولا الرهيب يضحك، كأنه يسخر من السلاطين وأولياء عهدهم، ويود لو ينطق ليذكر الناس جميعاً، أنهم موتى لا محالة.

كان الطبيبان المشغولان بنوا، من أبناء المنطقة، نصر الدين أكوي، مسلم من قبيلة الدينكا، يحمل وجهها، وأبجدياتها الجسدية، وحبها لرياضة العدو، وصيد الغابات الخطر، لكن ثقافته القديمة ذابت حين غدا مسلماً بعد تعرفه إلى شيخ من الصوفيين، التقاه حين كان يدرس الطب في الخرطوم. ولوتر أياو، وتني من نفس القبيلة، لا تعجبه الديانات، لكنه لم يزدرها قط، ولا دخل له في عقائد الناس، ما لم يلزمه بشيء. طبيبان عاديان، بلا مواهب خارقة، ولا خيال أبعد من كتب التعليم التي درسها، أسوة بجميع الطلاب. لكنهما قطعاً يعرفان كيف يخيطان جرحاً، ويعالجان رمداً صديدياً، وييسران الولادات المتعسرة لأي سبب، ويجريان عمليات إنقاذ الحياة كلها، بما فيها الولادة القيصرية، واستكشاف البطن في حالات التواء المصارين، أو الطعنات النافذة المنتشرة بشدة في تلك المناطق. وفي بعض الأحيان، يتسليان باستخراج رصاصة متبيسة من ظهر متمرّد قديم، أو إزالة بواسير مزمنة من شرح رجل اعتاد وجودها. ولأن ختان الذكور عند المسلمين لا يعدّ عملية تستحق جهد طبيب، فقد تركاها لمرمضين بالمستشفى، يجرونها على راحتهم.

في مراجعة سريعة لحالة نوا الفارق في الحمى ويتنزف من أحشائه وجده، اتفقا على أنها ليست ملاريا المستنقعات التي يسببها طفيل «البلازمديوم فالسبرم»، ولا التايكود، ولا الحمى

الراجعة أو القرمزية، أو حمى «دنقو» الفيروسية، أو أي حمى أخرى معروفة، تسبب كل ذلك اليباس والنزف. اتخذوا قراراً فورياً أن يعالج كحالة طارئة، ثم يحدد مرضه بعد ذلك إن عاش حتى يتم الأمر. ثم علقتم محاليل التروية من الملح والسكر، على يديه الالتهبتين، حقن جسده بمادة «التوفالجين»، الصائدة للحرارة، وضعت على رأسه وقدميه، أكياس الثلج، ونودي على عدد من عمال مصنع الألبسة، خضعوا لفحص فصائل الدم، وانتزعت من المطابقين منهم، عدة زجاجات من أجله. لم يكن الطبيبان أو طاقم التمريض، يرتدون أقنعة على وجوههم، لأن الأقنعة القماشية كانت قليلة جداً، وتستخدم في غرف الجراحة فقط، ولم يخطر على بال أحد أنه يواجه خطراً يحتاج إلى قناع لاتقائه. كانوا يحاربون عزلاً، ولا يعرفون ما الذي يحاربونه بالضبط.

لن يجاملهم إيبولا، ولن يحترم مهنة الطب التي يحترمها العالم أجمع، وبها عاش الطبيبان المختلفان في العقيدة، بنفس المميزات. مثل أن يقف لها الناس في الطرق، رهبة وإجلالاً، أن يدعيا لولائم السلاطين المميزة، أن يسمى الموالييد الجدد، على اسميهما، أن يصفق لهما المستمعون حين يحكيان قصة، حتى لو كانت مجرد اضطراب، أن يحجز لهما مقعدان وثبران في مباريات كرة القدم الموسمية، وفي عروض المسرح المكشوف التي تقام أحياناً، وفي ذلك اليوم بالذات، كانا سيجلسان في العصر، في أفضل مقعدين بالاستاد الرياضي، يستمعان إلى عازف الغيتار الزائر الكونغولي روادى مونتني.

حين وصلت تينا إلى المستشفى برفقة أوقيانو، والمرأتين المستأجرتين لحملها، صفق لها العمال المتجمعون عند المدخل، لا يعرف أحد من الذي بدأ التصفيق، ولماذا تبعه الآخرون؟ وما معنى ذلك؟ وفسره الكيني لنفسه، بأن العمال عدوا مجبتها بمثابة بداية جديدة في علاقتها بالزوج المريض، كانوا يصفقون لها، وللمرض الذي أعاد حيل الود، في نفس الوقت.

حب التغيير وحده، في مدينة شبه خامدة، هو ما جعل غازف الغيتار الكونغولي، الملقب بالإبرة، نجماً في ذلك اليوم، وفي بلد لا يعرف الشيء الكثير عن النجوم. ما جعل تذاكر حفله تنفد ببساطة شديدة، وتنشأ عراكات وصراعات قبلية، ومشاكل بلا حصر وسوق سوداء، وكل ما يتبع حفلات النجوم من صخب وفوضى.

منذ الصباح الباكر، بصحبة فئاته التي يتوكأ عليها، ومنظمي حفله الفرنكفونيين، كان روادى مونتي متوفراً في أكثر الطرق حيوية، الطريق الذي يسلكه المزارعون وصيادو غابات الجوار، وعمال المنشآت الحيوية، وباعة السلع الاستهلاكية الجائلون، وأيضاً المتسولون، واليتامى الباحثون عن نظرات عطف، قلما يجدونها.

منذ الصباح الباكر، تحسس الكونغولي عدداً من ملصقات الدعاية التي تحمل وجهه مشوهاً، وملابسه رخيصة قذرة، سأل صاحبه:

- هل أطالوا الأذنين، وقصوا الشعر، وغيروا ملابس الزرقاء الجميلة، وجعلوني مبصراً بعينين كبيرتين يا دارينا؟
قالت: نعم.

فابتسم واحدة من أعرض ابتساماته، التي لا يبتسمها عادة إلا حين يكون الفرح قد هبج غدته الدرقية، وأفرزت هرموناً نقياً. وكان روادى من المراجعين الدائمين لأطباء الغدد الصماء في بلاده، بسبب تفرغه في الفرح والحزن.

رزد باللغة السواحلية، وهو يعترض طريق قافلة من الحمير، تحمل عدداً من معلمي المدرسة الابتدائية المحليين، ذاهبين إلى عملهم:

- الآن أعرف أن لي جمهوراً.

كانت فلسفته التي قضى سنين حتى استطاع تأطيرها، واعتناقها بشغفه، أن ما يشؤه أو ينتقد، هو ذلك الذي يلفت النظر، ولو لم تلفت تلك الملصقات الدعائية أنظار الناس، لظل على حاله راكداً في الشوارع، وبالتالي راكداً في حفله. كان شبه متأكد من أنه وسط التشويه الذي حدث، هناك من استعد ليأتي ويطرب بعزفه المتفرد... نساء جميلات، شباب بشعور ممسطة ومدلثة جيداً، أثرياء يحبون الإنفاق، سلاطين يملكون سلطات القبائل، ويحتاجون إلى مصاحبة نجم.

أضاف، وهو يتفادى بمهارة، لسان حمار أراد أن يلحق أناقته:

- أسف لاعتراضي طريقكم يا سادة... هل تحبون الموسيقى؟

- ومن الذي لا يحبها؟

علق أحد المعلمين، هو نفسه الذي يركب على الحمار، صاحب اللسان اللاعق، وكان من سوء حظ روادى، أنه لن يحضر ذلك الحفل، لا هو ولا جميع ركاب القافلة، ذلك أن مراتب معلمي المدرسة الابتدائية من الوطنيين، كانت في أفضل حالاتها، بالكاد تكفي ليعيش أحد، وأن الحفلات الموسيقية، وعروض الترفيه التي تغامر بالمجيء أحياناً، تعد ترفاً لا يقدر على

نفقائه سوى القليلين، تحدث المعلم أكثر مما ينبغي، وأكثر بكثير مما هو مطلوب، لتبسيط همة فنان زائر، وضح تلك النقطة الهامة في مشوار حياته، ونقاطاً أخرى عديدة، عممها على المدينة بشكل تام، وانتهت المحادثة المؤلمة ورأس روائي يدور بشدة، نظراته الهائلة تتحاور حول وجوه المنظمين الذين لم يدفعوا له شيئاً حتى الآن، قالوا: لك ثلثنا إيراد الحفل، ولنا الثلث، واستضافوه في بيت حقير، بلا مميزات، لم يستضف في مثله، حتى حين كانت الحروب الأهلية في أفريقيا، تشتعل وسط موسيقاه، وتخفي البيوت الفخمة تحت أسطة الدم.

إن كان ذلك الرجل الذي يركب حماراً ذا لسان لاقع، صادقاً في حديثه، فإنه في أغلب الظن، سيعود إلى كينشاسا، ماشياً على قدميه.

أراد أحد المنظمين أن يتحدث، أن يبين سخف تلك الطريقة في استطلاع الآراء، لكن هؤلاء المنظمين المتوزطين بجدارة في زمن إييولا، ولا يعرفون بتلك الورطة، لا يعلمون أنهم مهما تسلطوا أو ينسوا، فلن يمنعوا رجلاً اعتاد اعتراض الطرق، من مزاوله نشاطه، وها هو الآن يعترض طريق ست نساء، يحملن جرار اللبن على رؤوسهن، وذاهبات لبيعه في السوق، عرف أنهن نساء من حفيف الثياب، ورائحة العطور البيئية، ووقع الخطوات على الطريق، برغم أن الجرار الثقيلة، كانت تغير من نهجها الأثنوي:

- مرحباً سيداتي... أنا روائي موتني... هل تحب إحدانك الموسيقى؟

كان يتحدث بالفرنسية هذه المرة، ولم يكن لدى بائعات الحليب طموح حتى تتعلم كيف يغسلن شعرهن، ويمشطنه، ويضعن شيئاً من الكحل الأسود الرخيص على عيونهن الحزينة، تجاوزن رطائنه ومضين في طريقهن، ولم يتبهن إلى صورته المشتتة من حولهن، وتضايق البصر، لأنهن بالكاد يتبهن إلى وجود القمر في السماء أو عدم وجوده.

وحده الكيني أوقيانو، أعاد توازن الروح إلى العازف المحبط، وهذه المرة لم يعترض روائي طريقه، هو الذي اعترض الطريق، خبط على يد العازف بسرعة، وكاد يقبله وسط توتر إييولا المتناسل في دمه، لكن العازف تفادى القيلة بأن انحنى وحك ساقيه التي لم تكن بحاجة إلى حك، صاح بتلك العصبية المعهودة:

شرف لنا يا سيدي أن تحيي حفلاً في بلادنا. أقصد البلاد التي أنتمي إليها بحكم الإقامة، أنت من أعلام أفريقيا... هل توقع لي على هذا الأوفرول؟

ثم أضاف بنفس العصبية والسرعة:

- أنا أنامي أوقيانو... من كينيا.

كان يرتدي ثياب العمل، لأنه زاهب إلى المصنع، وكان دقيقاً في احتفاظه بالتذكارات التي يستخلصها من زائري أنزارا بجميع مواهبهم وأطرافهم... من رشامين ومفتين، وسياسيين، ودعاة وحدة وانفصال على حد سواء، يحتفظ بها في هذا الزي الذي امتلا جسده بالتذكارات. وقبل أن يعلق العازف، كان أوقيانو يخرج من جيبه قلمه الأحمر الخاص الذي عبأه بحبر اخترعه وحده، وكان غير قابل للمحو أبداً. مد بالقلم للعازف، وناوله طرف كفه ليوقع عليه، وانطلق يعدو إلى مصنع الألبسة. في ذهنه أمسية جميلة سيقضيها برفقة موسيقى الكونغولي التي استمع إليها من قبل في أنزارا، وفي أسطوانات قديمة، عند أصدقاء يملكونها، ولم يكن يدري أن الأمسية لم تكن ملكه ليقرر أين يقضيها... كان كل شيء في المدينة يزحف ليكون

ملك إيولا، ووحده القائل الرهيب ما سيقرر، من الذي يستمتع بموسيقى روائي مونتني، ومن يرقد محتضراً نازفاً دمه، عند الطبيبين الذين سيعلقان في حالة لويس نوا، وحالات أخرى ستبعتها، حتى ينجلي أو لا ينجلي الأمر. وحين يأتي العصر، ويعلم مايكروفون الأستاذ الرياضي عن بداية الحفل الموسيقي، سيكتشف روائي نفسه، أنه أراق هرمونات الإحباط في البداية، بلا ميزر، فقط غير معروف حتى الآن، إن كان سيعود إلى بلاده راكباً عربية نظيفة، وحول عنقه قلادة من الزهور، أم لا يعود على الإطلاق.

في ذلك العصر، حين وضع له مقعد محترم من خشب المهوقني المبطن بجلد وحيد القرن، في وسط الأستاذ الرياضي، وأوصلوا غيتاره العريق بمكبر للصوت، يعمل بالبطاريات الطويلة الأجل، وأوعز له الفرنيكوفونيون، أن يتحنج، ويتأكد من سلاسة أوتاره، قبل أن يبدأ العزف، فوجئ روائي أنه يشم جمهوراً، يشم نساءً يانعات، ونساءً أقرب لليانعات، يشم ملامح من جبل الرواد، وجبل الوسط، والجبل الحديث الذي ألهبته موسيقى جاك ألينو، ودربدو الحداد التي اخترعها من إبحاء حك الصدا عن الحديد. تأكد لروائي أن الأمر حقيقي، ولو كان مبصراً لما دقق بهذه الطريقة واكتشف كل هذا الزخم.

كانت هناك بالفعل عشرات الفتيات، من عشرات الأعراق والقبائل، ذبن سيقانهن على القسوة، وجاهزات للرقص في أي لحظة، كانت ثمة وحدة وطنية خالصة، وأعضاء فرقة أنزارا للفنون الشعبية، بمن فيهم الخال ماجوك، كانوا حاضرين، وترتعش سيقانهم من شدة التوتر، لم يدعهم أحد للمشاركة، ولن يشاركوا بلا دعوة، ويفضلون توتر السيقان على جرح الكرامة. وقد تله الخال ماجوك من الأمر، حين أتى على طبول الجلد والتحاس، وآلة التوكوتكاو، المصنوعة من عيدان القصب، مفضلاً تلك الآلات التي درجت الفرقة على استخدامها، على آلة الغيتار الكلاسيكية التي ستندثر قريباً، تحت زحف التغيير. بديهى أن الموسيقى وحدها لن تكون كافية لإسعاد أولئك الناس كلهم، والعزف على أي آلة بلا مغن، أشبه بقيادة قارب بلا مجداف، وكان روائي من أولئك الذين يقودون القوارب بلا مجداف، لكنهم يصلون دائماً إلي بر الأمان. فجأة أراد العازف أن يختبر فطنته، قبل أن يعلن مذبذب الحفل المتأنق، بداية الكرنفال، وقف على قدميه، تنحج بقوة، صرخ:

- روائي مونتني، يحيي جماهير أنزارا.

وجاءته أصداة الهماتفات، أقوى كثيراً من فطنته:

- وجماهير أنزارا تحيي روائي مونتني.

هتاف من الداخل، ومن خارج الأستاذ حيث نشبت شجارات عدة، وصراعات قبلية، وسوق سوداء واتهم المتظلمون في أمانتهم، من دون أي إثبات أنهم سرقوا قرشاً من أحد.

في ذلك الصباح نفسه، وبعد ساعتين تقريباً من الوقت الذي كان فيه روائي مسيطراً على الطريق الحيوي، يعترض بانعات الحليب ومعلمي المدرسة الابتدائية الخشنين إلى أقصى حد، استطاعت تينا أراقوري، أن تبلغ الغرفة الصغيرة التي حجز فيها زوجها، وسمح لها بمشاهدة جزء صغير من إعيانه، لأن الطبيبين كانا يغطيان بقية الإعياء بجسديهما الفارعين، فوجئت بأنها ترى جزءاً من لويس آخر، غير زوجها الذي تعرفه جيداً، حتى وهو يهجرها عاطفياً. ليست هذه رعدته، التي يرتعدها من حضى المستنقعات، ليس هذا لون جلده الداكن، ليس هذا عرقه

ساعة المرض، وتلك الرقدة على ظهره، ليست رقدته، التي كانت دائماً على بطنه. وحين ابتعد أحد الطبيبين قليلاً، ربما ليريح عينيه من منظر المأساة، أو يحضر شيئاً مهماً من أحد الرفوف الجانبية، استطاعت أن تشاهد نصف الإعياء وأيقنت في تلك اللحظة، أنها غدت أرملة. الآن أمها الوحيد في جهد الباردة، وأن يكون قد غرس طفلاً، ويكون بحجم تخيلاتها، ذكراً، اسمه ماجوك.

ما حيرها في تلك اللحظة، هو السبب في هذا المرض المفاجئ، لا تذكر بالضبط، كيف خرج نوا من البيت في الصباح المبكر، لأنها كانت منتشية، وشبه غافية، لكنها تذكر جيداً، أنه التقط فرشاة أسنانه المستهلكة، من حيث يلتقطها كل يوم، ارتدى بذلة العمل الرمادية بنفس طريقة ارتدائه لها كل يوم، الشيء الجديد الوحيد، أنه صفر بلحن أفريقي عريق، وأغلق الباب في هدوء، وهو يخرج، ولم يفعل ذلك منذ سنوات. كانت تعرف عاداته جيداً، يسير في خط متعرج، يختصر به الطريق إلى المصنع، وكان خطأ قاحلاً ليس فيه متجر واحد، ولا بائع خضار، ولا بائعة ماء، ولا مجرد طائر مفرد، أو غير مفرد.

ماذا حدث للويس نوا؟

لا أحد يعرف، ووحده إيولا الذي يرعى في دم عامل النسيج، ودماء الآخرين الذين اقتنصهم منذ الباردة، يعرف، ويخطط وينفذ متى ما استطاع، وقد أعجبه أنزارا كثيراً، أعجبه مصنع الألبسة القطنية، الممتلئ عفاً وزخماً، أعجبه السوق وحي البغاء والخفارات، والاستاد الرياضي، والمدارس، والمستشفى، والشوارع الرئيسية، ولسوء الحظ، فقد استطاع أن يقتنص نصر الدين أكوي، أحد الطبيبين اللذين يواجهانه أعزّلين، اقتنص ممرضاً وممرضة، وامرأة حاملاً، على وشك الوضع.

ذلك المساء، كان الكيني أوقيانو، يبكي وحيداً في بيته، لقد ترك مستشفى أنزارا، مقسماً أن ينسى مأساة لويس نوا، لعدة ساعات، يستعيد فيها النشوة على أنغام روائي موتني، اشترى تذكرته باكراً، وانتظم في صف الدخول الطويل، وأحس فجأة بالدوار لدرجة أنه انكأ على كتف امرأة أمامه، وظلته يتحزض بها، وكادت تستغيث. اكتشف أنه محموم بشدة، ومتوَعك، ويتنفس بصعوبة، ويحس بالم في الركبتين، تجرجر إلى بيته أملاً أن ينعشه الطريق، ولم ينعشه، وفي البيت حين أحس برغبة في القيء وتقياً بالفعل... شاهد الدم وبكى. كان ينزف من حلقه، وجلده وفروة رأسه، ويبكي وتترأى له حياة الستين عاماً التي عاشها، مجرد عمر قصير، عمر طفل خرج من رحم أمه، ومات قبل أن يمكس بندي الرضاعة.

لن يعثر عليه أحد، لأنه لم يسع طوال حياته للعثور على أحد، وأصدقاؤه الليليون الذين يتفخ معهم، بعرق الذرة القوي وفودكا تجار الحدود المهرية، مجرد أصدقاء ليل، وصداقة الليل يمحوها النهار. زملاؤه في مصنع الألبسة، إما رايبضون في المستشفى، ينتظرون أن يرحل نوا، ليقوموا بواجب الدفن والعزاء، أو في بيوتهم، يحملون بصاعقة تدك جيمس ريك ومصنعه.

كانت قد اتضح له المسألة بشكل مزعج، لويس نوا سيموت، وقد جره إلى الموت أيضاً بنفس الطريقة، فكر عشرات المرات، أن لا يخاف ويقاوم، نجح في المقاومة إلى حد ما، لكنه أخفق في عدم الخوف، الشيء الإيجابي، أن إحدى جاراته كانت بحاجة إلى سكر في تلك

اللحظة، من أجل ضيوف طارئين، وتعرف أن منزله لا يخلو من السكر أبداً، فقد اعتاد شربه مذاقاً في الماء، ويردد دائماً، أن ذلك هو مصدر طاقته وحيويته في هذه السن...

في اليوم التالي، بدأت كلمة وباء تتردد داخل المستشفى. في البداية بصورة سرية للغاية، بين كل طبيب ونفسه، ثم بين الطبيبين وبعضهما، وأخيراً بصورة واضحة، رزدها طاقم المستشفى، وعمال تنظيف الغرف، والزوار، والعاقلون الممددون في الحديقة المهمة المحيطة بالمكان.

وباء... وباء... وباء

لقد وصل مساء البارحة، محمولاً على ظهر حمار مستلف من أحد فاعلي الخبز الكيني أنامي أوقيانو، وإحدى بانعات العرق في حي الخمارات، شاء الحظ أن تختلس قبلة، من نوا ساعة عودته الملوثة من كينشاسا، وهي سكرانة. في منتصف النهار، وصل عاملان آخران من عمال مصنع الألبسة، كانا داخل اللوحة المأساوية التي ركضت بلويس نوا في الشوارع. منقو نقوشوا الحلاق، الذي كان من أعلام أنزارا، وأسعدهم وجهاً، ولا يعرف كيف أصيب، لم يأت مطلقاً، قاوم بشدة، محاولات رسمه في لوحة مأساوية، أو إلقائه على ظهر حمار، قد يبرك من وزنه الثقيل، فظل أن يموت سعيداً في دكانه، ويديه مقص الحلاقة الذي ما فارقته طوال الخمسين سنة الماضية.

كان تداول الهمس من أعرق صفات المدن البعيدة. المتاجرة بالهمس ليست عيباً، والهمس المطبوع جيداً، والمصوغ بلغة تعبيرية سلسة، له عشاقه، والمتحمسون له بشدة، ويمكن في أيام القحط وانعدام وسائل الترفيه الأخرى، أن يحتل صدارة السلع المتداولة بين سكان تلك المدن.

ومن داخل المستشفى الذي يرقد فيه لويس نوا وغيره من المصابين الجدد، خرجت همسات كثيرة، روعي فيها أن تكون بنكهات مختلفة، بعضهم همسها بطريقة كوميدية، بعضهم تراجيدياً، وبعضهم كان جاداً إلى أقصى حد وهو يهمس. السوق الذي يسيطر العرب المهاجرون من الشمال، على تجارته منذ عهد الرق، وريش الديوك الملون، والأحذية التي تصنع من لحاء الأشجار، لم يتفاعل مع الهمسة الصارمة، التي تقول إن هناك وباء غريباً في المدينة، يؤدي إلى الموت، وبلا علاج حتى الآن. التفاعل مع تلك الهمسة، يعني أن يغلقت التجار أبواب دكاكينهم التي ورتوها عن آبائهم، وعاشوا على رزقها سنين، ويخططوا بإرهاق لتصفية حساباتهم، وتمزيق دفاتر الديون، ومغادرة المدينة في أقرب وقت، خالي الوفاض، كما دخلها أسلافهم الذين أسسوا ذلك الرزق.

بانعات الهوى وصانعات الخمور البلدية من الذرة والشعير والبن، أيضاً كرهن تلك الهمسة، التي تعني دحرجتهن إلى الطهارة، وعدم إغواء الغير، والاحتفاظ بأجسادهن محصنة من غزو الغرباء، وتعني دحرجتهن للأخلاق، حتى لا يموت الناس سكارى ودنسين. رفض الانصياع لقانون عدم الفناء، ورفض الموت الأكيد الذي نادى به الهمسة، وفي النهاية قزرن جميعهن، وبلا أي اتفاق بينهن، أن ينحزنن للرديلة، ويعملن حتى النهاية. ولا يعرف أحد من الذي اخترع تلك الجملة المؤازرة التي تمسكن بها، والتي تقول:

إن حياة بنات الهوى، أفسى كثيراً من الموت.

عمال مصنع الألبسة القطنية، أحبوا الهمة الكوميديّة، النكتة التي تقول، إن المرض الغامض لا يصيب سوى القروء، وكل من أصيب به، فرد. بدأوا في سبيل التسرية عن أنفسهم، وإبعاد الفزع الذي كان يسيطر عليهم بعد إصابة عدد من الزملاء، يتحسّس بعضهم مؤخرات بعض، بحثاً عن أذيال مفترضة، وأقسام الكثيرون وهم يضحكون، إن نوا كان يملك ذيلًا، والكيبي أوقيانو، كان يحب فاكهة الموز التي تحبها القروء، أكثر من أي شيء آخر، وأسرع أحدهم إلى مكان الآلة التي يشغلها أوقيانو، وجاء بكومة من قشر الموز اليابس.

وحده جيمس ريباك، صاحب المصنع، كان واجماً، ولأول مرة منذ أنشأ مصنعته، قفزت إلى ذهنه، شبهة الخسارة. دراسته لهندسة النسيج في يوغندا، وحياة الغابات والكر والفر التي عاشها من قبل، علمته أن يكون حذراً في مجازاة القطعان. كان يعتبر نفسه الراعي، وهؤلاء جميعاً قطعانه، كان دفتر تسجيل أسماء العمال، ووردياتهم، واستحقاقاتهم أمامه، وبيده القلم الحقيقي والمعنوي، ليضيف ويمحو على راحته. لم يمخ اسم لويس نوا، لأن الآلة الجديدة التي استوردها حديثاً وينوي تنشيطها في أقرب فرصة، قد محتته، والمرض الغريب، غير معروف الهوية، يعمل بجهد لإعدامه إلى الأبد، هذه ليست خسارة. هز رأسه؛ ليست خسارة. الكيبي أوقيانو، برغم أعضابه القابلة للانفلات، حتى لو طئت بعوضة بجوار أذنه، وإنه كلما حاول ترقبته إلى رئيس عمال، أو مساعد رئيس، تردّد وألقى الفكرة، إلا أن وجوده في المصنع يعادل وجود خامات القطن، ومواسير التبريد، والشاحنة التي تنقل الإنتاج إلى حيث تبتلعه الأسواق، ولن يمحو اسمه، حتى يتأكد تماماً من أنه لن يعود راكضاً من هذا الباب مرة أخرى. الذين كانوا داخل اللوحة المأساوية وأصيبوا، عاديون بلا مواهب خارقة، وبالرغم من ذلك فإن خسارتهم من الممكن أن تهز المصنع.

تحاوم في وسط ضجيج الآلات، ربت على كتف آلة تعمل، وشتم آلة معطلة، وصرخ عدة مرات منهيّاً عبت العمال بسرابيل بعضهم، نبه إلى اتخاذ الحيطة والحذر، وذلك التنبيه بالذات، أوحى إليه بفكرة مجنونة، ما لبثت أن ضحكت لها تعابير وجهه: الأفتنة... نعم الأفتنة الواقية. في تلك الظهيرة، جلس جيمس ريباك، على طاولته مستعيداً موهبة الرسم القديمة، التي كان يمتلكها، وألغاه بعد ذلك من سلسلة اهتماماته، باعتبارها موهبة سخيّة، أيام رسم وجوه المستعمرين، وأضاف إلى تفاصيلها عيون ثعالب، وأنوف بيغوات، وأذان قروء من فصيلة الشمبانزي. أيام غلقت إحدى لوحاته الزيتية، على ميني جمعية الصليب الأحمر، قبل أن تدكّه الحرب، ونال عنها جائزة. وأيام رسم لوحات متعددة لفتاة إنجليزية، كان يحيها بطريقة بذينة، ولا يجرؤ على الاعتراف بذلك.

ابتدأ ريباك يرسم. رسم قناعاً مبطناً، من عدة طبقات، ومرره إلى خط الإنتاج بسرعة غريبة، غداً سيكون في سوق أنزارا، قناع ريباك الواقية... غداً.

أشياء كثيرة لم يكن جيمس ريباك يعرفها، منها أن القاتل الرهيب بات يملك حصّة من منتجه، تعادل مصنع ذخيرة حبة، منها البدائية المطلقة في قضاء الحاجة، وتلوث الطرق والخضروات، ودقيق الخبز، ومنها أولاً وأخيراً، سيطرة المعتد الأقوى في بيئة المعتقدات المتوارثة، بأن الموت يوزعه ساحر شرير.

الذي حدث في مستشفى أنزارا، وداخل الغرفة الصغيرة المعبأة بالمحاليل والدم، ورائحة المظهر، أن لويس نوا قد أفاق من إغمائه، تلك الإفاقة التي تعرف وسط المحلين، بأنها «صحة الموت»، ولا يستطيع أحد أن يجزم، إن كان ذلك الاسم مطابقاً للحقيقة، أم مجرد اسم بلا هوية. كانت حرارة جسده قد هبطت إلى المعدل العادي، بتور الجلد الدامية بدأت تختفي، لسانه غدا رطباً، وشجاعاً، ويستطيع أن يسب ويعارك، وأيضاً يسهم بسلامة في إلقاء نكتة قدرة. تحركت يده عادية، لتحك رأسه، وقدمه استطاعت بلا مجهود، أن ترفس ملاءة السرير التي كانت تغطي قدميه.

لم يكن أحد الطبيبين موجوداً، ليراقب كل تلك التغيرات، كان الاثنان مشتتين بين الكيني أوقيانو، وبقية المصابين الذين وصلوا اليوم، وانطلقت بعد وصولهم تلك الهمسات المتباينة. نصر الدين أكوي، كان مصاباً ولا يعرف، ولم يسقط إلى الآن، وبرقت في ذهنه أيضاً، مسألة الأقبعة الواقية، وانطفأت سريعاً، بسبب انشغاله الشديد.

طلب لويس نوا من ممرضة عابرة، طالعه بشيء من الحذر، أن ترسل له غداء لأنه يحس بالجوع، منعها أن تسرع لتعلن استيقاظه بلهفة، حين ابتداء بتحديد ما سيتناوله في ذلك اليوم، وكانت أصنافاً عادية، ويمكن أن توجد في سلة أي زائر للمستشفى، وكانت موجودة بالفعل في سلة تينا التي طبختها، وأحضرتها معها ذلك الصباح، حين ذهبت إلى بيتها وعادت. هي أيضاً تحس بتوعك خفيف، وتعرف سببه، أو تزعم أنها تعرف: الإرهاق والخوف على الزوج المحتضر.

أكل نوا بتاراً وشرب بمتعة، وتجشأ، مستغلاً صحة الموت إلى أقصى حد، ولولا ازدحام المكان، وافتقاره للخصوصية، لدار بعينه متفحصاً الممرضات، بحثاً عن واحدة غير طموحة، يدغدغ مشاعرها، قبل أن يموت.

قال يخاطب زوجته التي ارتعبت من نضارته بشدة، واستعدت بكل كيانها، لتقبل رحلة الترمل المقبلة، وأمام كل الناس، إنه كان يخونها طوال العامين الماضيين.

بالطبع ليس موضوعاً جديداً، وتينا تعرف بموضوع الخيانة منذ كان مغازلة عاملة تنظيف غرف في نزل حقير، حتى غدا موتاً وبكاءً وزهوراً بنفسجية تفرس في قبر. تصنعت الدهشة، وهي تنظر إلى أمها التي لن تبيع الماء في الشوارع، في ذلك اليوم، وستبقى مع ابنتها، حتى تسلم الجنة، ودفتها وأيام العزاء كلها.

كنت تخونني؟

مكبة الرمحي أحمد

نعم... مع إلينا وكانيني التي التقيتها أخيراً.

تم رافعاً إصبعه في وجهها:

وكنت سأخونك أيضاً مع أي امرأة أخرى، لولا هذا الساحر الملعون الذي قتلني.

هذه إحدى بذاعات صحة الموت، أن يفتح الناس مراحضهم بكل قذاراتها، بزعم أن الموت الوشيك سيغلقها إلى الأبد، ويصادف أحياناً أن لا تكون لتلك الصحة علاقة بالموت لا من قريب ولا بعيد، فبعيشون حيواتهم الباقية نادمين.

من خصائص إيولا المتزعم للموقف بكل عنف وسرية، وبرغم أنه كائن فتاك، خاصة لا يعرفها نوا ولا غيره، أنه يعطو أحياناً، السبب في عفوه غير معروف، قد تكون مناعة الجسم

القوية التي يملكها البعض، هي التي تلوي ساعده، وتجبره على الفرار بعيداً عن الدم، وقد يكون أي سبب آخر، ولويس نوا لم يكن داخل صحوة الموت، في تلك اللحظة، كان داخل عفو إيولا.

جميع من في الغرفة، تنفسوا الهواء الفاسد بعمق، الطبيبان، الممرضون، الفضوليون الذين اخترقوا حصار منع الزيارة، وتزاحموا. بكت تينا، لا من خياناته التي حدثت وانتهت، ولكن من استعداده للخيانة مرة أخرى، لو عاش.

لقد أفسد عليها بكاء الأرامل الذي كانت ستيكيه، وحدادهن الطويل الذي كانت ستنفذه، أفسد نوا كل شيء.

ما أنقذ الموقف أو زاده كآبة، في تلك اللحظة، أن إحدى الممرضات جاءت تركض، وفي فمها خبر جديد:

مات الكيني أنامي أوقيانو، ماتت هاتعة الخمر التي اختلست القبلة من نوا ساعة قدومه من كينشاسا، مات عامل من عقال مصنع ريك، وماتت حمامة، ارتطمت بزجاج إحدى النوافذ.

وباء... وباء خطير جداً.

كانت كل الدلائل في المدينة تشير إلى ذلك.

كلها تصيح وتنطق.

السوق الذي ركبت حركة البيع والشراء فيه، ووقف تجاره القليلون ممن رفضوا الهمسة الصارمة، وأصروا على مواصلة الكفاح الجشع، تحت ظلال دكاكينهم، يتلفتون، المنشآت الصناعية التي خلت من رائحة العمل، باستثناء مصنع ريباك الذي كان ما يزال يعمل في إنتاج الأقنعة الواقية، للوحات المأساوية التي تمثل المرضى محمولين على السواعد، وعربات الكارو، ومجورين في الأرض الخشنة. ركود المدارس، ودوائر العمل الحكومي، واستعداد كثيرين ممن يملكون قرار الفرار، وتكاليفه، إلى الهجرة، قبل أن تغلق الحدود، وتعزل المدينة عن العالم الخارجي.

لم يعد المستشفى بعنبره المحدودة، وأسرته التي لم تجابه أوبئة عظيمة من قبل، وطبيبيه الوحيد لوتر، بعد أن سقط نصر الدين أكوي، وحمل إلى بيته ليموت بعيداً عن فضائح صحوات الموت، يكفي لمواجهة الحدث، وفي الساحة التي ارتادها المتمردون ذات يوم، استعادوا فيها ذكريات تباريح الحرب المؤلمة، وتدريبوا على مضغ المبرزات التي كبدتهم خسائر فادحة، وخضصها لويس نوا بإصراره وحده، لتكون مسرحاً لتكريم رجل العام الذي ناله، فرشت آلاف الأبسطه من القش، والقطن، والرمال الناعمة، علقت محاليل التروية القليلة، في السواعد الخشنة الجافة، وغطيت الرؤوس المتعزقة، بالخرق، لمكافحة الحرارة، بعد أن انتهى عقار النوفالجين، لم يعد بالإمكان مداواة أحد بأمانة وإخلاص، ولم يعد بالإمكان أيضاً، دفن أحد بهيبة ووقار. كان كل ذلك ترفاً في زمن إيبولا.

كانت السلطات في دولة الكونغو، قد أعلنت أخيراً، هوية القاتل الذي يعربد في البلاد منذ زمن، بلا هوية، أعلنت ذلك بلسان الدكتور نوجي موشولا، الذي قال إنه اكتشفه، سفاه إيبولا على اسم نهر قروي صغير، ظهر بقربه لأول مرة، في بلدة كيوكيت، وكان ظهوراً خجولاً أدى إلى موت حطاب عجوز، وأفراد أسرته، وبعض المقربين منه. تحدث الطبيب عن تركيب القاتل الجسماني، وتخفيه المحكم وهياجه الشرس، حين يتهيج، ومقدرته على اختراع الأذى

بملايين النسخ التي ينتجها داخل الضحية، وأيضاً عن إمكان أن يفز من بعض الأجساد التي تقاومه...

كانت كلمة الطبيب الأخيرة، التي أسعدت إيبولا كثيراً، هي وصفه لموت الضحايا، بأنه أقسى موت في الدنيا كلها.

وفي خطوة ملهمة سريعة، شبيهة إلى حد ما بتلك الخطوات التي تتخذ عادة، في حق المطالبين بالحرية، حين تقتلع عيونهم من محاجرهم، والطامعين في السلطة، حين يعدمون في الساحات العامة، رمياً بالرصاص أو على أعواد المشانق، أغلقت حدود الكونغو كلها، وأعقبت ذلك نبرة تفاؤل واضحة، حين أعلنت السلطات مجدداً، أنها تسيطر على الوضع تماماً.

الذين كانوا يقدرّون العلم، وجفت أسنتهم من كثرة ما رددوا ونوهوا، وحذروا، في الأيام السابقة، انطلقت منهم ضحكات فزع خاصة، فزعين لكنهم منتصرون، وزعماء القبائل الذين دججوا السحرة بخامات التعاويذ، وأرسلوهم في القرى والغابات وضافاف الأنهار البعيدة، بحثاً عن الساحر الشرير، اختلت هيباتهم إلى حد ما، حين طالبهم أتباعهم بإعادة أرواح أولئك الذين غيبهم الموت العلمي.

كان مألوفاً أن يضع تابع قدمه، أمام زعيم وقور يمشي مختالاً، وسط العشيرة، ويسقطه، أن يصرخ طفل في وجه زعيم القبيلة الذي كان يخيفه في الماضي، بأعلى صوته: أعد إلي أمي التي ماتت علمياً، لا بسبب الساحر الشرير.

ومثل أي بلد أفريقي آخر، كان هناك بالطبع سحرة، وسحرة شريرون إلى أقصى حد، تخضصوا في نهب الدم، وتعسير الولادات، والعمل في خدمة الموت ما استطاعوا، وقد تمتنى كثير منهم في تلك الأيام، لو أنهم امتلكوا قدرات ذلك المجهول، وكانوا هم أيضاً يظنونونه ساحراً، لكن أكثر تفوقاً منهم.

لن يقف إغلاق الحدود عائقاً أمام الرعب، ولن تستطيع السلطة مهما امتلكت من بطش أو سلاح، أن تمنع ميتاً وشيكاً بفيروس إيبولا القاتل، من الموت بسلاح حراس الحدود، عبدة الأوامر، لو اختار بنفسه ذلك الموت.

ستندفق قوافل الهجرة شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وفوق وتحت ومن الجانبين، ولأنه لا توجد أخبار حتى ذلك الحين، عن تسرب إيبولا إلى أنزارا في جنوب السودان، عبر دم عامل نسيج تمرغ في جسد فتاة ليل كونغولية مصابة، اسمها كانيبي، فقد كانت ثمة قافلة مبعثرة وفزعة، وغير مجهزة للسفر جيداً، تضم عربات قليلة، وحميراً، وحفاة يمشون على الأرض، في طريقها إلى أنزارا... كان من بين ركاب تلك القافلة، شخصيات مثيرة للجدل، فيها رياضيون

مخضرمون، ووزراء سابقون استولوا على المال العام وأقيلوا، وصعاليك أتروا حياة الليل لسنوات طويلة، بكل تجرد ونكران ذات، وكان بينهم للأسف الشديد، الساحر الكبير جمادي أحمد، الذي ترك شارع زومبي المسقى باسمه من أجل خطأ ارتكبه نوا، والآن يهاجر مرتعباً إلى بلاد نوا، التي يسكنها الرعب أيضاً، ولن تكون البلاد المناسبة التي يفر إليها ساحر لا يود أن يموت. أكثر ما كان يغيظه في تلك اللحظة، هو أن لا أحد من الفارين معه في تلك العربة الكئيبة، أبدى اهتماماً خاصاً به، وأنه جذب عدداً من الحيل الكلاسيكية لجذب النظر إلى رعبه، ولم تلتفت حتى نظر تلك المرأة العجوز التي كانت من جيله، وتعرفه، وعرضت عليه أن يتزوجها منذ أربعين عاماً وأبى، وحتى ذلك اليوم حين تنرفز وغضب، وألقى تمرّكزه في الشارع، كانت موجودة وتشهد عروضة، وذهلت كما ذهل الآخرون حين اختفى.

كان عازف الغيتار، روادى مونتي، الإبرة، قد عرف بأمر الوباء القابض على حلق المدينة، أخبرته الفتاة العصا دارينا، وهي تخاطبه من ركن قصي في البيت الحقيير الذي استضيف فيه، خوفاً من أن تعديه أو يعديها، إن كان أحدهما مصاباً، وأخبره منظمو حفله الفرنكوفونيون، وهم يدخلون إلى البيت، ويخرجون ويتهامسون، ويرفسون أثاث الغرفة القليل، المبعثر أصلاً بلا نظام. نشطت هرمونات غدته الدرقية، لدرجة أن عينيه جحظتا بتلك النظرة الهستيرية المعروفة في نشاط الغدد، نبضات قلبه تسارعت بشكل عشوائي، وارتعبت أصابعه، ولم تستطع أن تميز بين لحن قديم من ألحانه المعروفة، ولحن جديد كان يؤلف حروفه في تلك اللحظة. صرخاته استفزازية جداً، وأوامره غير قابلة للتنفيذ لأنه لم يعد في نظر الفرنكوفونيين، نجماً يستحق أن تُرعى له أذن، كان مجزذ ميت مؤجل، يقف معهم في طابور الموت الطويل.

كان يصيح:

- كسبنا الكثير من الحفل يا رفاق، غيروا هذا البيت الوضع، لقد كرهته، أريد حوض بانيو لأغتسل، أريد مروحة بلا صوت حتى أنام... صابون حمام من ماركة إمبريال، أريد شامبو لشعري. دارينا... دارينا... هل قبلني كلب مسعور أثناء الحفل؟... قولني... هل أمسك بيدي أحد، هل تنفس في وجهي أحد؟ وتلك الفتاة التي ألفت بشعرها على صدري، هل كان خذاها متوردين؟

اعتبرته الفتاة العصا، أكبر مزعج تلتقيه في حياتها، وكانت من قبل تهوى إزعاجه الصاحب، وتطلب منه في كثير من أوقات الهدوء والتأمل، أن يزعجها بأي شيء يخطر على باله، كانت لقيطة بلا أصل معروف، وروادى هو الذي

مخضرمون، ووزراء سابقون استولوا على المال العام وأقيلوا، وصعاليك أتروا حياة الليل لسنوات طويلة، بكل تجرد ونكران ذات، وكان بينهم للأسف الشديد، الساحر الكبير جمادي أحمد، الذي ترك شارع زومبي المسقى باسمه من أجل خطأ ارتكبه نوا، والآن يهاجر مرتعباً إلى بلاد نوا، التي يسكنها الرعب أيضاً، ولن تكون البلاد المناسبة التي يفر إليها ساحر لا يود أن يموت. أكثر ما كان يغيظه في تلك اللحظة، هو أن لا أحد من الفارين معه في تلك العربة الكئيبة، أبدى اهتماماً خاصاً به، وأنه جذب عدداً من الحيل الكلاسيكية لجذب النظر إلى رعبه، ولم تلتفت حتى نظر تلك المرأة العجوز التي كانت من جيله، وتعرفه، وعرضت عليه أن يتزوجها منذ أربعين عاماً وأبى، وحتى ذلك اليوم حين تنرفذ وغضب، وألقى تمرّكزه في الشارع، كانت موجودة وتشهد عروضة، وذهلت كما ذهل الآخرون حين اختفى.

كان عازف الغيتار، روادى مونتي، الإبرة، قد عرف بأمر الوباء القابض على حلق المدينة، أخبرته الفتاة العصا دارينا، وهي تخاطبه من ركن قصي في البيت الحقيير الذي استضيف فيه، خوفاً من أن تعديه أو يعديها، إن كان أحدهما مصاباً، وأخبره منظمو حفله الفرنكوفونيون، وهم يدخلون إلى البيت، ويخرجون ويتهامسون، ويرفسون أثاث الغرفة القليل، المبعثر أصلاً بلا نظام. نشطت هرمونات غدته الدرقية، لدرجة أن عينيه جحظتا بتلك النظرة الهستيرية المعروفة في نشاط الغدد، نبضات قلبه تسارعت بشكل عشوائي، وارتعبت أصابعه، ولم تستطع أن تميز بين لحن قديم من ألحانه المعروفة، ولحن جديد كان يؤلف حروفه في تلك اللحظة. صرخاته استفزازية جداً، وأوامره غير قابلة للتنفيذ لأنه لم يعد في نظر الفرنكوفونيين، نجماً يستحق أن تُرعى له أذن، كان مجزذ ميت مؤجل، يقف معهم في طابور الموت الطويل.

كان يصيح:

- كسبنا الكثير من الحفل يا رفاق، غيروا هذا البيت الوضع، لقد كرهته، أريد حوض بانيو لأغتسل، أريد مروحة بلا صوت حتى أنام... صابون حمام من ماركة إمبريال، أريد شامبو لشعري. دارينا... دارينا... هل قبلني كلب مسعور أثناء الحفل؟... قولني... هل أمسك بيدي أحد، هل تنفس في وجهي أحد؟ وتلك الفتاة التي ألفت بشعرها على صدري، هل كان خذاها متوردين؟

اعتبرته الفتاة العصا، أكبر مزعج تلتقيه في حياتها، وكانت من قبل تهوى إزعاجه الصاحب، وتطلب منه في كثير من أوقات الهدوء والتأمل، أن يزعجها بأي شيء يخطر على باله، كانت لقيطة بلا أصل معروف، وروادى هو الذي

صنعها. التقطها من الطريق، حين كانت مشروع طفلة بلا حماية، ستكبر في الطريق، وتصبح جزءاً هاماً في نسيجه الضال، ورباها كما يربي الأطفال عادة، الأكل الصحي، النظافة، شيء من التعليم والأناقة، وتحولت بمحض إرادتها إلى عصا، يتوكأ عليها في كل الأوقات. الفنان لا يتزوج سوى الفن، هذه كانت فلسفة أخرى من فلسفاته العديدة، جعلته يطلق امرأتين، تزوجهما تبعاً، ولم تمكث واحدة منهما وقتاً كافياً لدحض تلك الفلسفة، ومنذ عامين حين كان في إحدى دول الجوار، يشارك بغيتاره، بلا خجل في حفل تنصيب أحد الضباط الانقلابيين، رئيساً مدى الحياة لتلك الدولة، سألته صحافية شابة، أحس من صوتها، أنها تعمل في إحدى صحف الفضائح، وأخبرته دارينا بعد ذلك، أنها خلعت قميصها وحمالة ثدييها، أثناء إجراء الحوار، متعلقة بالحر الشديد:

سيد مونتي، هل لديك حياة سرية في مزرعتك التي تربي فيها الماشية، والبهغاوات؟... يقال إنك تميل لمعاشرة الدواب.
رد عليها بسرعة:

- نعم لدي أنثى حمار، أصاحبها في تلك المزرعة.

انكمشت الفتاة دارينا، في ركنها البعيد، وتهش الهواء بيديها بلا وعي، كأنها ترى الخطر وتنازله، كانت تتراءى لها بوضوح، مناظر اللوحات الدامية التي شاهدها في ساحة المتمردين، في ذلك الصباح، مناظر الجثث والعفن والمحاليل، وكل ما يجعل القلب يقفز من بين الضلوع... تفكر في عمرها القصير، وأنه انقضى بسرعة، وقبل أن تتأكد تماماً، إن كانت أنثى جديدة بأن تتزوج وتلد وتربي، لن يموت روادى وحده، حتى ترث بيته، ومزرعة الضواحي التي يربي فيها البهغاوات، والكلاب الأليفة، وبعض خيول السباق. سيموتان معاً... وفي مدينة جاءها للكسب، لا للموت.

كانت الآن تبكي، وبلا رغبة في الإجابة عن أي سؤال طرحه العازف الغارق في فوضى الخوف.

- متى تعيدوننا إلى بلادنا يا رفاق؟

صاح فجأة مخاطباً منظمي حفله المضطربين، كانت الهرمونات قد شلت أسنانه، وهزهزت شاربه الكثيف، وبدا شعره الأبيض الذي كانت تهذب دارينا، وتلمعه بزيت الفازلين، أكثر من ثلاث مرات في اليوم، أجعد ومنكوشاً، وأسوأ شعر يحمله فنان على رأسه. غيتاره بين يديه، وتخرج منه رنات نشاز.

أسكنه أحد الفرنكوفونيين، بأن قزب من أذنه راديو صغيراً، كان مؤشره الأحمر متوقفاً عند إذاعة الكونغو الوطنية، ويذيع الأخبار الطازجة عن الفيروس:

كم قتل اليوم؟...

في أي حي من أحياء كينشاسا، يتوقع أن تكون ضربته القادمة؟...
ما رأي الطبيب الذي اكتشفه؟ وهل هناك أمل في علاجه؟
- اسمع...

قال الرجل:

- هذه حال بلادك.

وسكت روادى... سكت لسانه، وسكت غيتاره القديم. وبالرغم من أنه تذكر فجأة، عامل النسيج الذي مس يده في ذلك الصباح، وكاد يقبله في رأسه، لولا أنه شم رائحة القبلة وانعطف عنها في الوقت المناسب، إلا أنه لم يسأل، خاف أن يسأل فيخبره الرفاق بمرض العامل أو موته، تاهت أفكاره، تستعرض الممكن والمستحيل معاً، الممكن في كونه ما يزال يملك لسانه، وأصابعه التي تنقر على الغيتار، والمستحيل، في أن ينجو من ذلك الشرك. لم يكن مصاباً بالفيروس، لأن حذره أكثر مما يتوقعه أي فيروس، ولمسة أوقيانو ليده، كانت خفيفة جداً، وكان يمكن أن لا يحس بها، لولا قدرته الغريبة على الإحساس.

كانت أقنعة رياك القطنية المبطنة بعدة طبقات، قد أنتجت. أنتجها في ليلة واحدة، بمن بقي من عمال أصحاب ما زالوا يداومون على العمل، تأكد من صحتهم بنفسه، حين أخضعهم لتحقيق طويل عن الأكل والشرب والاحتكاك بغيرهم في اليومين الماضيين، وبنفسه حين كان يتقافز من آلة إلى آلة في جنون. وبمساعدة الأطفال الذين كان يوظفهم برغم اللافتة التي كتبها بيده وعلقها على باب المصنع، وينكر فيها بشدة، توظيف الأطفال. حوّل بيعها إلى نشاط حيوي في الشوارع، العامرة منها، والشديدة البوار، وخفض من سعرها، حتى أضحت في متناول يد المتسولين، والخادمت، ومرضى الجدام، الذين بدوا وسيمين وأصحاء، بالمقارنة مع أولئك الذين انتهك الفيروس دمهم. وفي سبيل ترويجها وسط القبائل الوثنية، التي ما زالت تعاند الحقيقة، وتسأل النار والحطب وجذوع الأشجار، باعتبارها آلهة، أن تهبها الرحمة، وتزيل الهم، نقش على بعضها تعاويذ هو من اخترعها، وأقسم بأنها تعاويذ النجاة.

لم يكن رياك خائفاً من إيبولا، ولا غيره من الآفات، وقد نجا من قبل من كوارث محققة، أبرزها سقوطه في طائرة هليكوبتر، أيام التمرد، كانت تخص الجيش الحكومي، وغنمها، وحلق بها من دون معرفة مسبقة بقيادة الطائرات. وقبل أن تفر زوجته بصحبة سائق الشاحنة الكيني، أعدت له وجبة من لحم الغزال الطري، معبأة بسم الفأر لكنه لم يأكلها، لسبب بسيط، هو أنه لم يكن جائعاً

في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي وحين اكتشف الفرار المخزي لزوجته، وشم رائحة السم المختلطة بعقونة اللحم، أيقن أنه ابن حظ. ويوقن الآن بنفس التصميم، أن الفيروس المميت لن يمسه.

طرح على نفسه عدة أسئلة عن الفتك والهلاك، وأجاب عنها بسرعة، وهو يفوص في أحياء الوثنيين، بعربته الجيب، يروج بنفسه للأقنعة ذات التعاويذ.

- الطائرة المحترقة، أم إيبولا؟

- الطائرة بالطبع.

- سم الفأر أم إيبولا؟

- سم الفأر بالطبع.

- قنبلة المولوتوف في يد محارب حكومي غبي، أم إيبولا؟

- قنبلة المولوتوف بالطبع.

ما فات على فطنته، وتعصبه الشديد لحظه، أن إيبولا، ليس قاتلاً فردياً يمكن تفاديه لو نوى القتل، ولا تجوز مقارنته بطائرة صادف أن سقطت على شجرة متشابكة الفروع، أو طبق سام لم يؤكل لسبب أو لآخر، كان إيبولا حوله، ويرافقه في رحلته التجارية تلك، ويسخر من أقنعتة وحظه، وقد نشطت الآن منه ملايين النسخ، وتتحاوم في الحي الراقي نسبياً، حيث يقيم الأجانب، من إنجليز وفرنسيين وغيرهم، يعملون في مجال الإغاثة، والمساعدة في التعليم، بتدريب المحليين، وإعادة الهبة للتبشير المسيحي، وبعضهم مغامرون، موجودون بلا سبب معروف، أو رسامون، نادتهم غرابة المجتمعات البدائية، وجاؤوا ليرسموها.

لم يعد لويس نوا مهماً، في سياق الأحداث الكثيفة المتشابكة، التي عصفت بالمدينة في أيامها الأخيرة، وما عادت الغرفة الصغيرة، داخل المستشفى، التي ما زال يحتفلها لليوم الرابع على التوالي، تمثل محوراً، جديراً بالاهتمام به، لدى أحد. وبالرغم من أن فرصة نادرة جاءت، ليصبح معجزة في المدينة، بعد أن تنفض من المرض الذي جلبه، بينما مات الآخرون، إلا أنه لم يصبح كذلك. في الواقع كانت سيرته غير عطرة بالمرة، إذا صادف وتذكره أحد في تلك المعمة، معركة الحياة والموت التي أشعلها، وخرج منها. هو لم يخرج تماماً، لقد عفا عنه الفيروس، وربما يعود في أي لحظة ويتهك مرة أخرى.

كان من الممكن أن تصبح سيرة حياته التي رزدها في ما ظنه صحوة الموت، هي السيرة الأهم في المدينة، لو رزدت في زمن آخر غير زمن إيولا، كانت ستكون على أسنة السكان كلهم، الذين عرفوه والذين لم يسمعوها به من قبل، وكانت ستكون عبدة لدى كل امرأة، فرحت بالزواج، وأسرعت تتلقفه، لمجرد أن عابر سبيل، اعترضها في الشارع، وطلب يدها.

بالنسبة لثينا كان الأمر سيكون مختلفاً جداً، كانت ستقاطع جارتها التي حرصتها على إعادة الوصال مع الزوج، والسعي لإنجاب طفل، ستعيد الحجارة القديمة إلى مدخل البيت، وربما أضافت لها حجراً مستناً، ليشق جمجمة الرأس مباشرة وينفذ إلى المخ. وربما عادت إلى العطار العربي منصور، أعادت له أعشاب الملاك، والماكا، وكف مريم، المساعدة على الخصوبة، وسمحت له أن يتحزض بها، بلا رغبة في صده. الخيانة في زمن الهجر الطويل، ومرة أو مرتين في الشهر، أمر احتملته، لكن نية الخيانة من جديد، بعد كل ما بذلته، لم تكن لتحتملها.

لم يكن لدى ثينا وقت كاف لتفعل أي شيء، ولا حتى لتحك رأسها، والذين راقبوا غيبوبتها الأخيرة، بعد أن هزمها إيولا، وحضروا صحوة موت حقيقية صحتها، سمعوها تتحدث عن فأس اشترتها مرة بسوء نية، من أحد الحدادين، وأعادت بيعه مرة أخرى، لنفس الحداد، بعد أن صفت نيتها. عن عدد من عيال الجيران المراهقين، الذين يلعبون كرة القدم، أو يتراكمون حفايا، في الجوار، أرادت بكل صدق، أن تغويهم، تعلمهم كيف يتحسنون الجسد، ويستطعمون القبل، ويتلصصون على الثوابت الأخلاقية، مهما تشابكت، وأقلعت عن الفكرة من أجل نفسها فقط. من المحتمل أنها تحدثت قليلاً عن عمليات الاغتصاب الناجحة وغير الناجحة التي تعرضت لها في صباها، وهجرها الزوج على أثرها، لكن المراقبين غير متأكدين تماماً، الشيء المؤكد الأخير، أنها قالت:

لو لم أكن بائعة ماء في الشوارع، لوددت أن أكون راقصة في فرقة أنزارا للفنون الشعبية، برفقة خالي ماجوك.

وكان هذا الإيضاح، عكس الإيضاح الروتيني لذلك السؤال التاريخي: لو لم تكن أنت، ماذا كنت تود أن تكون؟

والإجابة التاريخية: لوددت أن أكون أنا.

أما البالغة من العمر تسعة وخمسين عاماً، وتحمل اسم أشول، أحد أكثر الأسماء تداولاً في المنطقة، كانت بقربها حتى اللحظات الأخيرة، تمسح العرق والدم عن وجهها، وتراقب محاليل التروية، التي تعربد في العروق، بعين ذاهلة، وأبت بشدة أن ترتدي أحد أقنعة ريباك الواقية، الذي أهدها إياها، الشقيق ماجوك، مبررة ذلك بأن روح زوجها المتوفى، التي تحلق باستمرار في كل الأمكنة، وتشارك العائلة أفراحها وأتراحها، أرادتهما معاً بجوارها، قالت الروح بصرامة:

- تعالي يا أشول... تعالي بصحبة تينا من فضلك، لقد اشتقت لكما أنتما اللاتنين، اشتقت لكما جداً.

الخال ماجوك، بكى من خلف قناعه الواقى، وابتل القناع كله، لا بسبب رداءة الصناعة التي أتقنها ريباك برغم العجلة، ولكن من كثرة الدموع. وفي الوقت الذي حملت فيه تينا أزاقوري، وعيناها ما تزالان مفتوحتين، ولسانها يابساً خارج حلقها، لتدفن في المقبرة الجماعية التي أعدتها السلطات المحلية، لدفن ضحايا القاتل، بجميع أعراقهم، وعقائدهم، بلا غسل ولا أكفان ولا إضاءة للوقت، قالت الأم لشقيقها: رجاء يا ماجوك، لا تتركتني أصحو صحوة الموت أبداً، إن صحوتها اخنقني، لأن في قلبي أشياء كثيرة ضدك، ولا أريدك أن تعرفها... رجاء يا ماجوك... رجاء.

ماجوك، الراقص في فرقة الفنون الشعبية، لم يكن فناً بما يكفي لتخليد ذكراه، إن كانت ثمة ذكرى ستخلد في مدينة، تمضي مسرعة إلى الموت، ولم يخرج من كل قفزاته وتلويبه وتوتر ساقيه لأربعين عاماً، سوى بعدة ابتسامات من نساء عجائز، ذكروهن في ما يبدو أياماً خوالي، وعلبة من السيجار الكوبي المهزب عبر الحدود، من معجب كونغولي، وشهادة تقديرية من مدير المدرسة الابتدائية، حصل عليها بعد وساطات من زعماء قبيلته، علقها في غرفته التي يقم فيها وحيداً، بجانب قرون الثيران، وعقود الخرن، والدروع التراثية التي يستخدمها في عمله، يطالها بنشوة كلما دخل الغرفة أو خرج. لم يكن في غرفته حتى إبريق شاي أو حلة طبخ، ولا كانت فيها ذكريات كثيرة، يسعى لاسترجاعها، كلما خلا بنفسه.

أم تينا، ليست وحدها من تملك في قلبها، أشياء ضد ماجوك، ويمكن أن تبعثرها في صحوة الموت، ولو عمل بوصيتها، لخنق نساء الماخور كلهن، في صحوة موتهن، ويعرفن ساديته وتعذيبه للمرأة العاملة، حتى وهي تسعى لإرضائه كذباً، لخنق بانعات العرق، والمريسة، ويعرف في بيوتهن، بأنه أبشع سكران يترنح في تلك البيوت، وكم من مرة افتعل المعارك، وأراق العديد من خامات الصنعة، لخنق زملاؤه في فرقة الفنون الشعبية، وكم من مرة تعفد أن يطرق بيوتهم، ويطلب النظر إلى حريمهم بلا حياء، ولخنق نفسه شخصياً، لأن الذي يعرفه عن نفسه، أكثر بكثير مما يعرفه الآخرون.

الشيء الذي استطاع الخال أن يفعله، وهو مصدوم وذاهل، هو أن يكبل يدي أخته وساقها، إلى سرير المرض، حين سقطت بإيبولا، وصحت صحوة موتها الحقيقية، وضع على فيها المتورم، المشتاق للحكي البديء، قطعة شاش كبيرة، استلفها من البيئة المحيطة، غير قناعه المبتل، وضع على وجهه ثلاثة أقنعة من ماركة جيمس ريباك ذات التعاويذ، لأنه كان وتنبأ مخلصاً لتاريخ أجداده، حمل الأخت على ظهره، ورماها بجانب ابنتها في تلك الحفرة الجماعية، وتنفذ من همها، وحين عاد إلى غرفته، وتأمل شهادة التقدير المعلقة، التي حصل

عليها بجهود مضنية، لم يحبها، كرهها، نزع الألقعة كلها، رماها على الأرض، وداس عليها بقدميه، وبكى بحق، وكأنه سمع روح نسيبه أزاقوري المحلقة، تدعوه للمجاورة، وتبته الأشواق، وتذكره بأيام لعبة كرة القش التي لعبها معاً في الأزقة، والحمار الوحشي الذي اصطاده بشقاوة من الغابة، وباعاه لتاجر عربي، وهما مراقبان، لم تحم ذاكرته أبداً في تلك المناطق التي اعتبرها مقدسة، وشملت حياته كلها، المناطق التي توتر فيها بساقيه راقصاً «الكمبلا» وشوشونقا، والتونيجي، بتعزجاتها المهلكة. تمدد على سرير الخشب القديم، وأغمض عينيه.

كان الوحيد الذي مات بالسكتة القلبية في زمن يموت فيه الناس بمرض متوحش كحصى إيولا، لا يمرض أبه وسخيف، وبلا شهرة أو شعبية.

تحرك لويس نوا من غرفته أخيراً، حرك يديه وقدميه بما يشبه إحماء الجسد، قبل ممارسة الرياضة، وخرج من الغرفة، وما يزال يرتدي الملاء البيضاء المتسخة التي ربطت في جسده، ساعة أن جاء لوحة مأساوية يحملها الزملاء.

في البداية، قصد ما كان من قبل يسقى مطعم المستشفى، ويعمل فيه طباقون من أبناء المنطقة، لا دراية حقيقية لهم بالتغذية، ولا يفرقون في أغلب الأوقات، بين الغذاء الذي يجب أن يتناوله مرضى السرطان، وتليف الكبد، واحتشاء عضلة القلب، وذلك الذي يتناوله الصيادون، وسائقو الشاحنات الثقيلة، وحمالو الأجوطة في السوق، كان نوا جانعاً، وقد نضبت تلك الوجبات التي أحضرها بعض زملائه في العمل من بيوتهم، قبل أن ينتشر الوباء، وتفر كل روح باحثة عن سبيل خلاصها، لم يكن يعرف أن تينا سقطت، وصحت صحوة موت كافرة، ورحلت، وأمها سقطت أيضاً، وتكفل شقيقها ماجوك بإجهاض صحوة موتها بناءً على توصيتها، ورحلت أيضاً، وماجوك الراقص غير الموهوب في فرقة الفنون الشعبية، وآخر فرد في العائلة المنكوبة، عثر عليه في غرفته، مثالاً للمبت المهدب، المنطوي على حاله، بواسطة زملاء له في فرقة الفنون، لم يكونوا يزورونه عادة، وزاروه في ذلك اليوم بالذات، من أجل أن يسألوه بوصفه أكبر الراقصين سناً، إن كانت طبول الجلد والنحاس التي في عهدهم، عرضة هي أيضاً للنفاء بذلك المرض الفامض.

في المطبخ عثر نوا على علبه بسكويت من ماركة «ويفر» الإنجليزية الأصل، والمقلدة في كينشاسا بلا خبرة كبيرة في التقليد، كانت تخص ممرضة مصابة بهبوط السكر المزمن، وترفع بها سكرها، كلما بدأت تترنح، وترتكها في لحظة الرعب التي هجر فيها المستشفى، وعلى زجاجة من خمر البين القوي، يملكها أحد الطباخين، ويبيع محتوياتها بكؤوس صغيرة للمرضى الداخليين، ومن المؤكد أنه سقط قبل أن يخفيها، لأن وجودها هكذا في مرفق حكومي، كان كفيلاً بإيقاد عشرات الأسئلة الباحثة عن أجوبة، لو بقي في المدينة مسؤولون نافذون، يمكن أن يشكلوا لجنة تقضي حقائق في المستقبل، لم يكن ثمة شيء آخر، غير الصراصير المقاومة للقحط المسيطر، بالقناعة، وبعض السحالي التي تستكشف الوضع من شقوقها، وتفر، وخيوط عنكبوت تتسلق السقف المدهون بالدخان. ولاحظ نوا وهو يلتهم بسكويت الممرضة، ويحتسي خمر البين برأس الزجاجة مباشرة، أن ثمة قطاً لامع العينين يراقبه من زجاج النافذة المكسور. سار في ممرات المستشفى يتلفت بحذر، ودخل عنابرها الخالية، وبنشوة الخمر الطارئة التي

أنسته أنه كان في محنة، وأن البلد كله في محنة، دخل إلى غرفة الجراحة، حيث كانت تجري العمليات بلا إمكانيات كبيرة، تأملها قليلاً، ثم أرقد وسادة متسخة عثر عليها في الغرفة، على طاولة العمليات، وشق بطنها بمشروط، وهو يقهقه، ويرد عبارات سوقية، لا يمكن أن تخطر أبداً على بال الجراحين وهم يشقون بطناً، أو يوقفون نزفاً. كان غير نادم على فتح مرحاضه القذر في الصحوة التي ظلها صحوة الموت، وكان مخطئاً في ظنه، ويأمل بكثير من الحذر أن يعثر على فتاة ضائعة في أي مكان، يواصل معها مسلسل الخيانة العادي في نظره، لا يدري لماذا تذكر كائيني، فتاة الهوى الكونغولية التي أنعشتها يومين كاملين، وأنسته الحزن على العشيقة الميتة، وحركت هرموناته التي وصل بها إلى أنزارا، وأعاد بها الوصال إلى بيته الأسري، لماذا ردد بينه وبين نفسه، أنها أطعم من ألين وتينا معاً ولماذا لم يحس بأنه كان من المفترض أن يموت بعد صحوته المؤلمة تلك، لعدة أسباب أهمها، أنه يعد شريكاً للقاتل الرهيب، لأنه جلبه للمدينة.

كائيني التي هي أطعم من تينا وإلينا معاً، لم تعد موجودة في أي مكان غير خياله... وفي اليوم الذي تركها فيه، وغادر بحجة إحضار المال، لتسديد متطلبات الورقة التي قدمتها له، لم تنتظره كثيراً، ألفتها بلا تفكير، وغادرت إلى شوارع أخرى، بحثاً عن آخرين لتصدقهم، ويخدعونها كما اعتادت ذلك منذ قدومها من الريف، وتوزعها في العاصمة التي ليس في قلبها ذرة عطف واحدة على يتيم، وبالأحرى ليس على ضائعة مثلها. هو يتذكرها الآن بوضوح، يتذكر ملاحظتها جيداً، يقارنتها بأخرين، ولو جلس للرسم بأدنى موهبة، لرسمها كاملة، في ساعة العري وتبجح اللذة، وهي لن تتذكره، أولاً، لأن ذكريات بنات الهوى تشبه كثيراً ذكريات الديكتاتوريين، ذكريات ملعونة ونجسة، وثانياً، لأنها ماتت، في ذلك اليوم الذي خرجت تتسكع فيه، بحثاً عن غريب جديد. لم تمت من إيبولا، لأن الفيروس كان يتناسل فيها ببطء وترق، ولم يقرر إسقاطها بعد، ولكن في أثناء تأدية عملها.

في أحد تلك الشوارع السامة التي لا تشبه شارع جمادي أحمد الوقور، حيث التقت لويس نوا، استوقفها رجل، سألها عن اسمها كالعادة في بداية المراودة عن النفس، وأعطته اسماً آخر غير كائيني، كعادة أمثاله حين يسألن، وربما تعطيه الاسم الحقيقي حين تحدث الثقة بعد ذلك، وهذا ما لم يكن يحدث أبداً، لا توجد ثقة في مهنة بيع الجسد، لا توجد عند بائع أو مشتر. كانت ورقة الديون التي فر بسببها نوا، موجودة في حقيبة يدها ما تزال، وكانت الحقيبة خالية إلا من أدوات الزينة الرخيصة التي لا بد منها في مهنة تعتمد على زينة الوجه أولاً، وبعد ذلك يأتي عنفوان الجسد، وثأني الخلاعة وغيرها. مؤكداً أن كائيني لم يكن اسمها الحقيقي، الاسم الذي انتهكت به في مزرعة الضواحي، بواسطة ساسة الخيل وملاكها، ومراهقي المزارع المجاورة، لكنه الاسم الذي يرضيها في العاصمة، وهي لم تعطه حتى للويس نوا، لكنه انتزعها منها انتزاعاً، حين أمضى معها زمناً أكثر مما ينبغي. قالت للغريب اسمي ديباني المرححة، وضحكت، مؤكدة ما تحمله من مرح، وبدأ لها بقامته المنسقة، ووجهه المبتسم بلا شاربين، وحلقة المعدن الفضية التي يضعها على ثقب في أذنه اليسرى، قوادماً متمكناً، أكثر منه مشترياً للمتعة. ابتهجت ولطالما بحث طوال العام الذي قضته في كينشاسا، عن وسطاء يسهلون مهنتها، ولم تعثر على أحد قط. كانت صاحبات البيوت المعروفة، التي طرقتها،

يطرين على جمالها وفتنتها، وعمرها الفضي، ثم يعتذرن عن قبولها في بيوتهن، بحجة رواج المهنة واكتظاظ البيوت بالأنفاس. والرجال المتنفذين، الذين يديرون الهوى من بعيد، ووصلت إلى بعضهم بالفعل، لم تستهوههم، حيث كانوا يفضلون العذراوات اللاتي يشبهن المصقات السياحية. ابتهجت حين أمسك الغريب بيدها، جس نبضها في تأن، وأمسك بالعروق النابضة في رقبتها، تحسسها بوله، وطلب منها أن تغتسل وتتطهر جيداً، لأنها ستموت اليوم على يديه ويدي أصدقاء ينتظرون في مكان قريب. ضحكت، كانت عبارة الموت على يدي، عبارة مألوقة في تلك التجارة، يردها الفحول، وفاقدو النخوة معاً، وفي أغلب الأحيان بلا معنى، حين تنتهي المساومة، ويبدأ التطبيق الفعلي. ركضت إلى مرحاض عام في الشارع، اغتسلت جيداً وتطهرت، وتأكدت من وضع حاجبيها، والرموش الصناعية في عينيها، وأحمر الشفاه الرخيص، ورافقت، حيث قادها إلى مستنقع معتم خلف الشوارع العامة، وهناك شاهدت رجالاً ونساء منكوشي الشعر وذاهليين، وتحلقوا حولها في هوس حين دخلت. صرخت، وكانت صرخة متأخرة جداً.

لقد كانت كانيي فتاة الريف الضائعة، ضحية جديدة، تضاف إلى ضحايا عديدات متن بلا معنى لأن ثمة أناساً شاذين في الدنيا، يقتلون الناس بلا معنى. وربما لو عاشت وسقطت حتى بابيولا، لما ماتت هكذا، مقطعة إلى قطع صغيرة، ستلقى في ما بعد في أي مزبلة.

خرج لويس نوا من المستشفى، وهو ما يزال يرتدي القميص الخاص بالمرضى الداخليين، والذي كان يغطي نصفه الأعلى، بينما ترك النصف الأسفل، عازياً، مكسواً بالشعر، وبقايا لسعات البعوض الاستوائي، والجروح التي كانت من صنع إيبولا وتراجعت.

كانت الشوارع يابسة، ومحمومة هي أيضاً بهجير أغسطس، ولا رائحة للمطر في طقس استوائي، من المفترض أن يكون ممطراً بلا توقف طوال العام. ولم تكن خالية من الناس تماماً، كان ثمة مارة عديدون، يمرون مسرعين وقد ارتدوا أقنعة جيمس ريك على وجوههم، ثمة لوحات مأساوية، لا يحملها أحد ولكن أصحابها يزحفون في اتجاه الساحة الكبيرة، حيث يوجد أمل في العثور على نجدة، لم ينتبه إلى أنه كان حافياً، وأن هجير الطريق يقرض قدميه، وكان قد احتسى زجاجة خمر البن كلها، وكانت كثيفة بالقضاء على أي إحساس، بما في ذلك إحساس الروح المذنب.

الآن اختفت من تخيلاته، صورة الفتاة كاثني، الصورة العارية، والمحتشمة، اختفت صور تينا وإلينا، وأمها والخال ماجوك، والكيني أنامي أوقيانو، وبرقت صورة صاحب العمل جيمس ريك، الصورة الأكثر بذاءة من حقيقتها، تلك التي تمنى نوا وتمنى زملاؤه العمال أن يرمسوها طوال سني خدمتهم، ولم يستطيعوا، في ذهنه، تلك اللحظة، كان ريك مربوطاً إلى إحدى أشجار الباباي الوارفة، وفي صدره منة طعنة سكين. لم يكن نوا قاتلاً، ولا حمل في داخله إحساس قاتل من قبل، وقد تهيات له عشرات الفرص ليقتل فأراً متسللاً إلى البيت، أو جرواً مزعجاً يتمسح بالأقدام، ويثير القشعريرة، أو قط الجيران الذي كان يستولي أحياناً على عشائه، بلا وجه حق، ولم يفتنهما، وكان حتى تلك اللحظة، لا يعرف أن ريك قد فصله من عمله، وأبى أن يحمل على عريته القوية لإسعافه، فقد سقط قبل أن يعرف، ولم تأت فرصة في أيام مرضه الحرجة، وفي زمن إيبولا الذي أضاع الكيني أوقيانو، ليعرف ذلك، كأنه إحساس خاص، هبط عليه في شكل وحي، ليتحول إلى قاتل تخيلي، كأن الخمر القوي، جرحه إلى خيالات القتل، ويمكن جداً أن يكون المرض نفسه، قد أذى بعضاً من خلايا دماغه، ليجعله هكذا بلا عقل، ولا تفاعل، ويرى الناس أشباه موتى في الطريق، ولا يندعش. التقط عدة أقنعة وجدها في الطريق، تفحصها جيداً، وتأكد خلوها من الدم والبصاق، ورائحة الزفارة الوسخة التي خبرها حين شم نفسه قبل أن يسقط، فلم يعثر على شيء، ارتداها كلها، ويعرف قيمتها بالرغم من أنه يرتديها لأول مرة، وتبع الراكضين إلى حيث لا يدري أين يركضون، وانتهت الرحلة إلى ساحة إيبولا.

في تلك الأثناء كانت السلطات في إقليم الجنوب كلها قد استيقظت. أيقظها النقر الكثيف على أجهزة الراديو واللاسلكي، التي يملكها الأجانب الأوروبيون، العاملون في المنطقة، ويستخدمونها حين تكون الحاجة إليها ملحة، حقيقة أن الفيروس تحاوم كثيراً في حي الأجانب، تحاوم في أجساد بانعات الحليب الطازج، اللاتي يقمن بدورات صابحة هناك، ويعين الكثير، في دماء عمال مجار، ربما أصلحوا خلالاً، وسباكين دخلوا لإيقاف تسرب في الماء، كان

يحدث، وربما التقطه ذلك القس المتواضع جداً، حين ذهب إلى الصلاة في كنيسة البلدة الوحيدة، من أجل أرواح الضحايا، وقبل بعض المحليين المتدينين يده، لكن من غير المؤكد أن ذلك قد حدث، وأقنعة رباك كانت تغطي وجهه، وقد أضاف قفازين سميكين، ليده التي يعرف أنها عرضة للتقبييل. الآن أهل الحي جميعهم يعرفون، كأنهم كانوا يعرفون من زمن أن ذلك سيحدث، لأن الحبيطة كانت موجودة في كل شيء، الحقائق المثمرة بالخضروات التي زرعوها بأيديهم، وسوروها بالأسلاك الشائكة، ولن يقدر على تلويثها أحد، أفران الخبز التي تنتج بجهود نسائهم الصلوات اللاتي يستطعن التكيف في أي طقس ومكان، وأكداش المعلبات التي استوردوها من بلادهم، يمدد صلاحية طويلة، وأبقوها داخل مخازن واسعة ونظيفة في البيوت.

لن يجوع أجنبي في أنزارا، مهما طال زمن إييولا، ومن المستبعد جداً، أن يموت إييولا نفسه.

الرعب له قانونه، وفي زمن الكوارث، لا يصبح الرعب طبقياً، تحمله الوجوه الخشنة والمتعبة فقط، ولكن تحمله أيضاً، وجوه أكثر البشر رقبياً وتحصناً.

الرعب في الحي الأجنبي الراقى، صحيح هو رعب، نفس الأحرف الثلاثة التي تكون الكلمة، نفس المذاق في الفم، والرائحة في الأنف، والهستيريا في السلوك ولكن يختلف في تقضي التبعات... هنا سيكون التساؤل أكثر عمقاً وفلسفة:

مانا لو استمر الوضع طويلاً، وضاعت على أبنائنا الأذكاء، سنة تعليمية خصبة؟...

مانا يحدث لسيفاننا، لو لم تترىض رياضات الصباح والمساء تفادياً للجلطة؟

وماذا لو ارتفع الكوليسترول في الدم، وتسبب بضيق الأوعية الدموية؟

تساؤلات جماعية، خطرت على أذهان سكان ذلك الحي، وأرعبتهم، وتساؤلات خاصة جداً خطرت في بعض البيوت، المرأة الشابة الجميلة مثلاً، حين تضطر إلى ملازمة البيت، امرأة بيت عادية، لا تخرج في الطرق، وتعتبر الشعر والعطر، ويتبعها المحليون فأغرو الأفواه، هاوي الصيد العجوز، حين تصدأ بندقيته، من دون أن تدخل رصاصة في قلب وعل أو غزال، وهواة جمع الطوايع، حين لا يستطيعون الوصول إلى مبنى البريد، والبحث وسط الرسائل الضائعة، عن طابع نادر.

وأخيراً، ذلك الرعب العلمي، المبني على أسس راسخة، إن فيروس إييولا المسيطر على الوضع، قد لا يكون هو نفسه الذي اكتشفه الطبيب الكونغولي ماشولا، ويجرى البحث عن علاج له، أو لقاح يفسده، ولكن سلالة أخرى، تحوّرت، وتخصصت في سكان أنزارا وحدهم.

الرعب في الحدود الكونغولية أيضاً شديد الوطأة، وقد تجمهر الفارون من الكونغو، بمن فيهم الساحر الكبير، جمادي أحمد، يتسولون الرحمة من حراس الحدود الذين لم يسمعوا بالرحمة كثيراً، أو يقرأوها، في تلك الأوامر التي وصلت إليهم من رؤسائهم... كانوا مسلحين وصلدين، وربطي جاش بصورة نادرة، لا يهابون الفيروس لأن التعليمات أمرتهم أن لا يهابوه، وقتلوا في زخة رصاص واحدة، كل الحمير التي جاءت بالمفزعين إلى حدودهم، وتقبوا في زخة أخرى، جميع إطارات عربات الجيب، والشاحنات التي كانت تحمل الفزع الميسور، ولم

تكن ثمة طريقة لاستهداف الذين أتوا على أقدامهم، إلا بقتلهم شخصياً، وهذا كان الخيار الأخير.

كان جمادي أحمد يملك برغم فزعه، شيئاً من الروح العسكرية، بعض اللغة، التي يعرفها من أيام تجنيده في الجيش الكونغولي، ولم تمح من ذاكرته تماماً، كان يعرف أن الجنود فقراء، ومربوطون بحبل التبعية الطويل الذي ينتهي عند جنرال جالس على مكتب فخم، بعيد عن ترنحات إييولا، أو يتسلى الآن بمراقبة الباريسيات على مقهى الكارديفور، في شارع الشانزليزيه، وربما يخطط لانقلاب عسكري مذهل، يطيح قوى التخلف والرجعية، بقوى تخلف ورجعية بديلة. يعرف جمادي أن وضعه كساحر قديم ومعروف، حتى للخارجين على القانون، الذين يقضون عقوبات في السجون، وريات البيوت، اللاتي يذكرن اسمه كثيراً في تخويف العيال الأشقياء، لن يغيده كثيراً في ذلك الموقف، ويقف بجانبه عدد من المرموقين، يستجدون الرحمة مثله. كانت عبارته المنقوشة بالأحمر على صندوق أدواته، وتوقع المراقبون أن تشتهر بشدة، قد ضاعت، أضعافها إييولا، وحولها إلى عبارة هامشية بلهاء، شبيهة بالتي يكتبها الأطفال والسذج. لن يفامر جمادي بإضاعة الوقت في ابتلاع الخبوط وشفرات الحلاقة، في تلك الحدود اليابسة، ولن يخرج من كيسه أرنيه البري، وحمامته البيضاء، والدجاجة المسكين، التي يستخدمها في الحيل، ويأتي بغيرها، كلما هزلت أو ماتت، لبعرضها جميعاً للرصاص. تقدم من أحد الجنود، وكان ذا لحية بيضاء، واللحية البيضاء لا تبت في أفريقيا، إلا إذا كان العمر قد تقدم بنحو مريض، وتكومت كثير من الحكمة والذكريات، لم يعتر على أي رتبة على كتفه، وأكتف الآخرين، واستغرب من ذلك القطيع الموحد، لكنه استمر مع ذلك:

- سيدي

قال جمادي بصوته العادي، صوته الذي يستخدمه في البيت، أو عند الجيران، أو يشتري به الجبن من دكان الحي الذي يسكنه، وهو بالقطع، لا يشبه صوت الإثارة المججل، الذي يستخدمه في شارع زومبي، كلما قدم حيلة مستهلكة...

- سيدي... أريد أن أخاطب الجنرال، قائد الكتيبة إذا سمحت.

لم يبذ أن الجندي أرغى سلاحه، أو حتى ألقى إليه بنظرة، لأنه كان يسمع صوته الخشن، يأتيه من أعلى، وانبث له في تلك اللحظة، إلى أنه قصير بشكل مخز، واستغرب كيف جندوه في الجيش في ذلك الزمان البعيد، وكيف سمحوا له بأن يخوض تلك الحروب الأهلية كلها، محاطاً بالجماجم والدم، يمثل ذلك القصر قبل أن يتعلم الحيل، ويسزح من الجيش...

- كلنا قادة لهذه الكتيبة، نتناوب قيادتها كل شهر... كلنا رتبة واحدة... انتهى... عد إلى موقعك.

الكلام حاسم جداً، ولو صح، فقد عثر الساحر على تفرة في النظام العسكري، يهددها لأصدقائه الشيوعيين، عشاق الفقر والسجون، الذين طالما نظروا في التاريخ والجغرافيا، والفلسفة وعلم الأديان، ولم يكتبوا عن الجيش كلمة شكر أو ذم واحدة، ذلك لو لم يمتم بإييولا، ولم يمتم الأصدقاء الشيوعيون... انظروا... كتيبة كلها جنود... يصبحون قادة كل شهر... انظروا. ليس في وسعه أن يفامر بأكثر مما غامر به، لذلك تراجع بهدوء.

كان المرعويون جميعهم، قد افترشوا الأرض الصلبة، أمامهم تمتد مساحة قحط لثيمة، وخلفها بعض الخضرة المبشرة، ويستطيعون أن يشاهدوا تكتات الجند، مبعثرة، وعلى أبوابها ونوافذها، علق الصدا والغبار. كان لديهم أكل وشرب، وقوارير خمر أيضاً من أجل المسرة والنسيان، وربما تختبئ خلف تلك الوجوه النسائية المفزوعة، أجساد بنات هوى معتقات سيجزين العمل الدنيء تحت وطأة الرعب، ومهما كان الرعب مسيطرأً وحقيقياً، فلا بد من زاد، ومن أمل أيضاً، ومن انتظار ربما يقصر أو يطول.

المؤسف أن الكونغوليين حتى لو استخدموا الرحمة أو غيرها من الأساليب، وسمحوا لجمادي وغيره من الفارين، بالتسرب إلى جنوب السودان، فإن القصة لن تكتمل، ذلك أن حراس الحدود في الطرف الذي يقصدونه، تلقوا أوامرهم الخاصة، واللثيمة جداً، لا أحد يدخل ولا أحد يخرج، ليس في حدود الكونغو فقط، ولكن حتى في الحدود الداخلية التي تربط أنزارا ببقية مدن الجنوب. ولو فرض أنهم أيضاً سمحوا بالتسرب هنا، في هذه البقعة الهائسة، فالقصة ما تزال بحاجة إلى تدقيق.

على صعيد الموسيقى، والحفل الذي سفاه روادى موتني، حفل الشؤم، واشتعلت غدته الدرقية بسببه، حد الخطر، وكان يمكن أن تميته، لولا عقاقيره المهدئة التي ناولته إياها الفتاة دارينا بحذر، وتحس يهبط دورتها الشهرية قبل موعدها بأسابيع، كان الأمر في غاية الرداءة، غاب أحد الفرנקوفونيين، عدة ساعات، تعقب فيها أطفال الشوارع المرؤجين للأقنعة، غير عابئين بالموت، وعاد بعشرين قناعاً وأقياً، وزعها على الجميع، وأوصى رباك الذي صادفه يتجول بعريته، وسط الخطر، وبلا قناع من أقنعتة، معتمداً على حظه، أن يسرع من أجله، بإنتاج قفازات ثلاثم أيدي العازقين الموسيقيين، وغطاء للرأس، يناسب شعراً منكوشاً، وأجعد، ولو أمكن أن يخترع حذاء من القطن قياس ثمانية وأربعين، فليفعل، لأن في ضيافته لعنة، لم يصادف مثلها أبداً من قبل.

الحقيقة أن روادى لم يكن ينطلق في هياجه من رغبته الخاصة في الهياج، ولكن بفعل هرمون (التايروكسين) المقرف، الذي نشط فيه كل عضلة وكل خلية، بدأ غير متنازل أبداً عن تغيير البيت الوضع الذي يقيم فيه، بيت محصي جيداً، ومؤسس بحيث إن التملة لو دبت على أرضه لسمعها، كان لا يفرق في تلك اللحظة من الرعب الخاص جداً، بين الحماية من خطر السرقة والإجرام، والخطر المتحاوم في الهواء، يقهقه، ويتلاعب بالأرواح، ولن يمنعه أي عائق، ولأن الفرנקوفونيين اقتنعوا بأن لا جدوى من انعاء الصمم، إضافة إلى أن ما حققوه من مكاسب في حفله، كانت مجرد مكاسب بلا قيمة في زمن انعدام القيمة، نقلوه إلى بيت آخر، كان مملوكاً لأحد التجار العرب، ولم يمانع في تأجيرها، وبالسعر الذي طلبه، برغم كل ما يحدث في المدينة. صابون الإمبريال لم يكن من ضمن تجارة أنزارا، حتى يوفروه، وشامبو غسيل الشعر، كان موجوداً، ولكن من نوع رخيص، تقبله روادى صاغراً.

وعد رباك، منظم الحفل الفرנקوفوني، أن يسلمه القفازات وغطاء الرأس في أقرب فرصة، لكن حذاء القطن لم يكن من بين منتجاته القديمة، ولا تلك التي استحدثتها في زمن إيبولا، ولن يستطيع رسمه، لأن قواه الذهنية، استهلكت في رسم الأقنعة، وحتى لو رسمه، فليس ثمة آلة ميكانيكية تستطيع صنعه.

وصل لويس نوا إلى الساحة المكتظة بالموت، وشبه الموت، والحياة أيضاً، تلك الممتلئة في لابسى الأتقنة المتطوعين، الذين يساعدون الطبيب لوثر المرهق، الذي يعمل بكد منذ عدة أيام، يساعده بعض الذين عفا عنهم إيبولا، وجاؤوا بخبراتهم في شم الموت، ومعانقة الحياة من جديد، يعلمون المتضررين، كيف يموتون إن قدر لهم أن يموتوا، وكيف يعودون إلى الحياة، إن قدر لهم أن يعودوا، وإضافة إلى ما اكتسبوه من خبرة في صحوات الموت الكاذبة، كانوا ينتهون بشدة لمن أفاق من المرضى، يحللون مفردات صحوته، وتقاطع وجهه، ويزغردون بهستيريا حين يكتشفون أنها صحوة كاذبة.

سمعت همهمات كثيرة تسري في المكان، بأن أصداء الوباء وفداحته، قد وصلت إلى الذين يجب أن يعرفوها، وأن فرقاً طبية متخصصة، ستأتي بطائرات الهليكوبتر، من مدينة جوبا، عاصمة الإقليم، ومن الخرطوم عاصمة البلاد، والدول المتقدمة أيضاً، وأن الذي سيعيش حتى يرى تلك الانفجاجة الكبرى، عليه أن لا ينسى من ضحوا بأرواحهم، حتى تحدث.

لحظة وصوله إلى الساحة، كان ثمة اضطراب يحدث، فقد أكد شهود عديدون أن الحفرة الجماعية التي تحوي معظم الذين سقطوا وأكملوا صحوة موتهم، وماتوا في النهاية، ليست خالصة للموتى وحدهم، أكدوا أن فيها أرواحاً تصرخ، وتطلب النجاة بالحاح، ولم يملك أحد جرأة طارئة ليمد تلك النجاة. بالنسبة للطبيب لوثر، فإن للمهنة قواعد محددة، وهي أن يعمل على محاولة إنقاذ الذين تحت يده، ولن يسعى إلى حفرة ملوثة، حتى لو أنقذ الأرواح الحية التي تصرخ فيها، فهو وقت محدود، لأن إيبولا يمتلكها، ويعيش فيها بكل جنونه، ولن يسمح للخارجين منها، بالبقاء أحياء حتى موت جديد، يأتي في المستقبل.

بقي لوثر يعمل، والمتطوعون الذين يساعدونه يعملون، والشهود الذين حملوا الخبر، باعتباره خبراً رئيسياً، يثيرون الاضطراب، ويستخدمون كلمة الإنسانية، مقرونة بالسباب والظعن في شرفها، لأول مرة في تاريخ تلك الكلمة التي تجل وتعظم في كل بقعة من الكرة الأرضية.

تطلع نوا إلى كل ذلك. تطلع بعمق، وعرف أن الذين ما زالوا يملكون عقولهم، قد ميزوه، لا بسبب وجهه، فقد غطاه بأقنعة جيمس ريك، ولكن بسبب القميص الطبي المتسخ، الذي يكشف نصفه الأسفل، يبرزه عارياً ومكسواً بالشعر. هو أيضاً عرف الكثيرين، سوى من المرضى أو الذين يحاولون مساعدتهم، عرف إحدى الجارات وكانت تعمل في صناعة الجبن من حليب بهائمها، وبيعه، وكانت في صحوة موتها، تسب الدنيا كلها، وتؤكد أنها رأت عورة السلطان «كجك»، حين تحزّش بها جنسياً، أثناء شرائه الحليب من بيتها، وكان السلطان كجك من الوجوه المحترمة والصارمة جداً، في المدينة، ولا يتوقع أحد مهما اختلف معه في الرأي أو كرهه، أن تكون حتى أي من زوجاته العشر، قد رأت تلك العورة، عرف أحد زملائه في مصنع ريك، وكان المرشح التالي المفترض أن يشمله تكريم رجل العام، في السنة التالية. لم يسمعه يتحدث، لأنه استيقظ منذ فترة، وأكمل الطقس المعتاد، ورحل والآن سيفادر إلى الحفرة

الكبيرة، ليلحق ببقية الراحلين... ومن أهم الذين عرفهم، سائق حافلة الركاب التي جاءت به من كينشاسا، وكان من مواطني المدينة. والقطار العربي منصور، المعروف لكل رجال المدينة، بأنه الأب الحقيقي، لعدة مواليد من نساء جنوبيات، ولدن بلا رباط مقدس، وكان نفسه الذي زود تينا بخامات الخضوبة، وتحزش بها. وكان جلياً أنه سقط في حفرة من حفر الإتارة الملوثة، وتحزش بامرأة مصابة. لم يشر أحد إلى نوا، باعتباره مذنباً، وشريكاً في الإثم، ولم يسمع كلمة نايبة واحدة في حقه، وحين طلب منه أحد المتطوعين أن يقترب، ويشارك في العمل، بوصفه أول من أصيب وأول من مات، وأول من عاد من الموت بكامل قواه العقلية، تنبه فجأة إلى أن ذلك قد حدث بالفعل، تسرب خمر البن من رأسه فجأة، كأن الساحة المكتظة اقتلعت، صرخ:

- أين تينا؟

ركض في وسط الخراب، ومؤشرات الخراب التي تسعى لتقاوم كل تلك الأيدي العاملة، وتصبح خراباً حقيقياً، ولم يعثر عليها، ليست هذه المرأة، فهي أضخم، ليست هذه، إنها بشعة، ليست هذه، ولا هذه، ولا هذه.

أخبروه بأمر الحفرة الكبيرة التي ربما تحوي زوجة حية أو ميتة، وكان قد سمع الخبر، من الشهود المضطربين، ولم يستوعبه كاملاً بسبب النشوة، ولم يصدق أن المرأة عموماً، لا زوجته بالتحديد، يمكن أن تصبح يوماً بلا طعم. لم يذهب إلى الحفرة كما هو مفترض، وركض إلى بيته بتلك العافية التي تركها له إيبولا، وكان ينوي استخدامها في الخيانة.

كان باب البيت مفتوحاً، وما تزال آثار جسد تينا حين تكومت منتحبة، أمام الكيني أوقيانو، موجودة، مياه الغسيل القذرة، جفت ونبت في موضعها العشب، لم تكن ثمة حجارة تعوق الدخول، وترج الرأس، وكانت ملاءة العذرية الحمراء مفروشة على السرير، وعلى طاولة من الخشب، بقرب السرير، عدة أكياس من البلاستيك، ممتلئة بأعشاب الملاك، والماكا، وكف مريم، وأمام طاولة الزينة بمرآتها المشققة، مساحيق تجميل ومرطبات وجه، وإصبع روج.

الآن لويس نوا ليس خائناً بالمرّة، زلزلته الذكرى بطريقة لم يتوقعها على الإطلاق، ومرت في خياله كل صور الماضي، المنتصرة منها والتي انهزمت، الغالية والرخيصة، البهاء والراجحة العقل، تذكر ست عشرة فتاة ترنح في حبهن وهو مراهق، واستجابت له واحدة نصف عمياء، ما لبثت أن سلمته الهجر على طبق من الاعتذار تذكر قسمه أن يتزوج بأول فتاة مبتسمة في الطريق، وكانت تينا ترتدي سروال أمها المتقوب، وتبتسم، تذكر المفص والحمى، وليالي كان فيها منضبطاً للغاية، وأخرى، أخرج يستحق عقوبة الإعدام.

في شبابه كان الناس إما صيادين، يهزمون الغابة ويحلون معضلاتها بجدارة، وإما متمردين على السلطة المركزية، يزدرون الدساتير غير المنصفة، ويخترعون البطولات التي تدخل في المآثر الشعبية، وقد كان خادماً عند الفرنسيين، يرسلونه بكل برود إلى السوق، أو يجعلونه ينظف مؤخرة طفل، وفي أحسن الأحوال، يسمحون له أن يندهش، حين يتأمل لوحات مانيه، وجيوفاني، المعلقة على الجدران. كل ما تخيلته الجارة المحزومة، وهي تخوض في سيرته، بلا وجه حق، كان للأسف صحيحاً، فقد ألقته أمه بالفعل في المزابل، كي يأكل، وإخوته كانوا

بالفعل قطاع طرق وعرين، ونزحوا إلى الخرطوم منذ سنوات، لأنهم سمعوا بأنها تكسب الذهب...

في ذلك الصباح، سيبكي نوا تاريخه كله، ابتداءً من صرخته كمولود جديد على الدنيا، وانتهاءً برقدته على ملاءة العذرية الحمراء في سرير الخشب القديم الباهت. سيتأكد له تماماً أن تبنا لم تكن سيئة جداً، وأمها الشول، لم تكن تحمل له ضعينة، كبيرة كانت أو صغيرة، وخالها ماجوك الراقص في فرقة الفنون، لم يكن سوى فنان ناقص، سعى للكمال بالزندقة ولم ينله. سيتأكد له، أن الكيني أنامي أوقيانو، يستحق منصب رئيس عمال، لأنه كان مبتكراً، وحاذقاً وشديد الإخلاص لعمله، وجيمس ريباك، يستحق أن يموت، لأنه لم ينصف أحداً طوال حياته، وحرية المقدمة التي خاضها في الغابات، كانت حرب سلطوي مجنون، لو انتصر فيها، وارتقى حاكماً للبلاد كلها كما كان يأمل، لما استثنى أحداً من مشائقه.

في تلك اللحظة، عاودته رغبة القاتل التخيلي، وتمنى لو امتلك قدرة تحويلها إلى واقع، وسبق إييولا الذي يمتلك وحده لفة الموت الحقيقية، في قتل ريباك، وإحراق مصنعه الحقيير. أفاق على صوت باب بيته، يصر معلناً قدوم زائر، واستغرب أن يكون ثمة زوار في هذا الوقت العصيب. لو كان وقتاً عادياً، لنحرت له الذبائح بمناسبة نجاته، ولجاءه الزوار بفزارة يهنئون.

صاحب المصنع، جيمس ريك، مجنون بلا شك.

هذا هو انطباع إيبولا القاتل، الذي كونه عنه، منذ أول وهلة تحاوم فيها حوله، وبالرغم من ذلك لم يستطع إصابته حتى الآن.

هو نفسه، انطباع البلدة كلها منذ أيام التمرد القديمة، وانطباع الزوجة التي فرت بصحية سائق شاحنة من كينيا، وانطباع لويس نوا الذي يواجهه الآن، بعد أن اقتحم بيته وذكرياته، وأطار من رأسه كل خيالات أو ذكريات، كانت تتناسل في ذهنه.

المفاجأة أن الاقتحام لم يكن شرساً، ولا متفطرساً، على العكس، كان ناعماً، وبهدوء شديد، ووجه ضاحك، لم ير نوا، ريك يرتديه أبداً من قبل.

لقد فهم جيمس ريك، بعد جهود مضية من فيروس إيبولا، في القتل والتشريد، وتفارقة المرأة عن زوجها، والجارة عن جارها اللصيقة، والأبناء عن ذويهم، والعشاق عن خلواتهم المحببة، أن كلمة ابن الحظ التي ظل يتداولها في حق نفسه، زمناً طويلاً، ليست على حقيقتها أحياناً، بدت له أشبه بكلمة ابن زانية، وابن زقاق وسخ، وابن كلب ضال، واعترف بينه وبين نفسه، بأن الشجرة التي سقطت عليها طائرته المنكوبة، كانت قوية، وذات أفرع متشابكة، وكان لا بد أن تمسك بالطائرة، مانعة ارتطامها بالأرض. اعترف بأن سم الفأر الذي زينت به الزوجة الهاربة، لحم الغزال الطري، ليس شيئاً تماماً، وكان سينكشف من أول تذوق، وقنبلة المولوتوف التي في يد عسكري غبي، يمكن تلافيتها بقليل من المراوغة.

في ذلك الصباح، دخل مصنعه الذي أصبح حياته كلها، منذ أن صالح السلطات، كما يدخل كل يوم، اتجه إلى مكتبه، أمسك بدفتر الغياب والحضور، الذي يسجل فيه العمال ساعات حضورهم مبكراً جداً، ولم يجد اسماً واحداً قد حضر، ركض إلى صالة آتته، مؤملاً أن يسمع هديرأ ما، فلم يسمع. كانت الآلات كلها خامدة، وقد عرفت بعض القطط المشردة، كيف تتسلقها، وتبرز على بعض الأنواب التي كانت ما تزال عالقة فيها، لم يكتمل إنتاجها بعد. غضب ريك بشدة، وبرغم غضبه، لم تحم شبهة الإضراب في ذهنه، كان من الفطنة في تلك اللحظة، بحيث يتوقع حتى أن تقوم القيامة، في زمن مثل زمن إيبولا. كان قد وعد أحد منظمي حفل روادى مونتي، أن ينتج قفازات خاصة تناسب أصابع الموسيقيين، وغطاء شعر لفنان منكوش الشعر، ورسم النماذج، ولا بد من إنتاجها فوراً، لأنه تسلّم ثمنها مقدماً.

فجأة توقف بصره عند الآلة القديمة، تلك التي كان يديرها لويس نوا لسنوات، ويمد عمرها بمهارة لم يستطع أن يعرف من أين اكتسبها، ولم يسأله قط، وكان على وشك أن يزيلها، يستبدلها بواحدة جديدة، ما تزال رابضة في أحد الأركان، أفضلت هبة إيبولا على المدينة، مشروع تدشينها. إنها الآلة التي محت اسم نوا من قوائم عمال المصنع، حتى قبل أن يسقط بإيبولا، لكن نوا لم يموت.

كانت الآلة القديمة ما تزال ثابتة في مكانها، وتشبه كل الآلات الأخرى التي في الخدمة، وفي آخر مرة أدارها نوا قبل أن يسافر إلى كينشاسا، ويجلب الشر، دارت وأنتجت قمصاناً

وسراويل، وشالات بدائية، لكن مقنعة. اقترب من الآلة الخامدة، حياها بتحية عسكرية صلدة، سافها الآلة الجنرال، وأقسم أمامها، بكثير من التشنج، إنها ستظل باقية في مكانها إلى الأبد، وستعود للعمل حالاً، والذي سيعيدها هو لويس نوا شخصياً. تركها بعد تلك المبالغة، وأدار آلة أخرى أفضل حالاً، عمل فيها ساعة، حتى تسلّم واقيات المغني اللعينة، لهما في كيس من الورق، يحمل شعار مصنعه، وتوغل في شوارع أنزارا، لا يلتفت إلى لوحات المأساة، التي يشاهدها تزحف أو ترسمها السواعد. لقد عرف يموت أنامي أوقيانو، وكثيرين غيره، ممن شكلوا شريان حياة دائماً، عاش به المصنع الصغير، عرف أن أوقيانو صا صحوة موت في غاية الرداءة، خضصها كلها لتعريته هو جيمس ريك، واصفاً كل شيء رديء فيه، ولا أي شيء إيجابي، كان لا شيء إيجابياً فيه، ويزعم أن من إيجابياته، أن جعل في تلك البلدة المشلولة، مصنعاً يتحرك وينتج، ويصرف رواتب للعاملين. عرف أن أوقيانو كان يتحدث بثقة، وصوت واضح، وقبل أن يموت بدقائق فقط، وصف امرأة كان يغشاها في غياب زوجها الشرس، وصفها عارية، وحين ترتدي العقود اللعينة، وتمشط شعرها، وحين تحك أصابع قدميها بالحجر، محاولة أن تزيل أعشاش الفطريات التي تسكن بين أصابعها، لم يقل هي هانا زوجة جيمس ريك، لكن الوصف الذي التقطه ريك كان كافياً للغاية...

عاشقة الكينيين التافهة...

كان ريك يردّد.

في كثير من الأيام فكر أن يتعقبها، إلى حيث غطست في أحد جحور نيروبي، وانقطع سائق الشاحنة الذي فزت معه عن المجيء إلى أنزارا، يرسل لها قتلة من صنف بديع، يحولونها في دقائق معدودة، إلى واحدة من أروع لوحات الدم التي رسمت، وبدأ بالفعل بالبحث عن أحد أولئك الدمويين، وكان من حسن الحظ، أن أنزارا لم تعرف في حياتها قاتلاً مأجوراً، يقتل بلا حقد شخصي، ثم رفض جميع من كان يعرف تذوقهم للدم، من أيام التمرد أو بعده، وعرض عليهم المهمة، أن ينفذوها، وقالوا له كلهم بلا أي اتفاق: نحتاج لعدة خطوات من أجل التنفيذ، أولاً نحضرها إلى أنزارا وتسكن بيتك من جديد، ثم تطلقها رسمياً، ثم نتزوجها رسمياً أيضاً، ثم نتركها تفر مع الكيني مرة أخرى، وبعد ذلك نقتلها بدافع الحقد الشخصي.

الأمر ليس مضحكاً أبداً، لكن الموضوع كبير جداً، إذا ما قاسه بمقياس الرجولة التي يملكها، كلفاند سابق، كان مطلوباً للسلطة بشدة، وورد اسمه مراراً، في خطابات وزراء الدفاع الذين تعاقبوا على إدارة تلك الوزارة السمجة، وورد مرة في خطاب ألفاه رئيس الوزراء شخصياً، بمناسبة عيد العلم في مدينة الفاشر، أقصى غرب البلاد، وسمعه بنفسه في الراديو، أثناء تواريه في الغابات. أيضاً لو قيس بمقياسه الحالي، بعدما أنهى تمزده، وتصالح مع الدولة، كواحد من رجال الأعمال القلائل في المدن النائية، وتعتبرهم سلطة الخرطوم، من منعشي الاقتصاد القومي.

في ساحة إيبولا، الممتلئة بالشجن، والأهات والحياة، وشبه الحياة، أخرج قناعاً خاصاً، صنعه لنفسه، وكان من القطن والبلاستيك معاً، وارتداه، لم يرد أن يعتمد على الحظ السخيف بعد الآن، سأل عن لويس نوا، الرجل الذي جلب المرض ونجا، فأخبره الذين انتبهوا إلى ساقى نوا العاريتين، ونكشه لأجساد النساء الحية، والتي فارقتها الروح، أنه كان هنا منذ ساعة.

ويبحث عن زوجته، وقال له أحد عماله الذي لم يتمرد حقيقة، لكن المرض أرغمه على الغياب، إنه لا يضر له شيئاً حتى الآن، ولكن عليه أن يكون بعيداً وثابت الأعصاب، في لحظات صحو الموت، لأن نموذج أنامي أوقيانو، نموذج عام، ويمكن أن ينطبق على عمال المصنع كلهم. حقيقة لم يكره ريباك أوقيانو كثيراً، برغم كل شيء عرفه، حتى مسألة الزوجة الغنية بالتفاصيل التي وصفها، ولو عاد إلى الحياة مرة أخرى، لوظفه بلا أي تردد.

تحرك بعربته إلى مقر حفرة الموت التي بدت فوهتها فائرة من شدة اللظى، وترسل رائحة الأجساد المتحللة، جنباً إلى جنب مع صرخات الأرواح التي تأتي أن تستسلم لقدرها، وتحلق بعيداً، وغادرها مسرعاً، متجهاً إلى السوق، كان يعرف أن نوا جانع، ومفلس، وقطعاً يستطيع شراؤه بوجبة. كان في السوق بعض الرمق، الهمهمات التي سرت في المدينة، وردت أن الانفراجة الكبرى قادمة، وصلت إلى هناك، وتشجع عدد من التجار الذين لم يغادروا أصلاً أماكنهم، وظلوا مرابطين لكن خامدين، لاستعادة روح البيع من جديد، رشوا الماء أمام دكاكينهم، لاصطياد الرطوبة في ذلك الطقس الحار، وشرعوا في نفخ الغبار عن السلع، وإعادة تأهيل أصواتهم الخاملة منذ عدة أيام، للمناداة بها، تلك النداءات التقليدية التي تزين السلع وتبهرجها، وتستريح عيوبها، والمعروفة في أي مكان في العالم.

تفحص ريباك تجار السوق، ونشاطهم المحدود، وانشرح حين شاهدتهم يرتدون أقنعتهم، اشترى عدة كماليات من عدد من المحال، تشجيعاً لما سفاه، بداية المقاومة الجادة، ضد إييولا، اشترى وجبة رخيصة، ثم ركب عربته من جديد، واتجه إلى بيت نوا، ويكاد شبه متأكد من أنه سيجده هناك، سكران، وعديم الجدوى كما عهد.

لقد عاهد الآلة القديمة في هياج، بأنها ستعمل، ولا بد أن تعمل.

على مقعد واطى في الصالة الصغيرة لبيت نوا، جلس ريباك معدداً ساقبه. قيادة العربية وتوغلها في أحياء الوتيين، عدة مرات في اليوم، ولعدة أيام متواصلة، أنهكته، إضافة إلى تقدم العمر، وصوته الذي كان يستخدمه في الإقناع، مفسراً به لغة التعاويذ الكاذبة، كان مرهقاً أيضاً، ويأمل الآن أن يستجيب نوا بلا إنهاك إضافي، وأن لا يضرطه لاستخدام لغة التمرد التي هجرها منذ زمن، ولا يستخدمها إلا نادراً، في هذا الشأن البسيط. ومن دون أن يستخدم صوته، مد لنوا الكيس الورقي الذي كان ملوثاً بالزيت، وتفوح من داخله، روائح الثوم والبصل، تناول نوا الكيس ومزقه، والنهم في حقد، واحدة من الوجبات النادرة في حياته، لا بسبب طعمها، ولا أنها في زمن إييولا، ولكن لأنها من يد، لم تتعود أبداً على العطاء.

نوا قد يكون مهملاً بعض الشيء، وغير مهتم بتفاصيل الحياة الكبرى والصغرى، ولا يستطيع التفرقة كثيراً بين فعل الخير والشر، لكن هذه الوجبة ليست من فعل الخير أبداً.
- نعم يا رئيس.

قال وفي فمه آخر لقمة لم يرد أن يبتلعها بالرغم من أنه لآكلها عدة مرات، وحولها إلى صيد سهل لأمعانه الهاضمة، فمه ملوث بالزيت، ورأسه اعتدل بسبب اعتدال السكر في الدم، لم يكن بسكوية الممرضة كافياً، ليضبط سكر رجل جانع بتلك الصورة المزرية. وكلمة رئيس، لم تكن عشوائية، إنها الكلمة المستخدمة بضرورة ملحمة وسط الآلات وهديرها، وحتى في خيالاته حين تصوّر نفسه قاتلاً، لا أحد عمل في مصنع ريباك، يستطيع أن يكلمه وجهاً لوجه، من دون

كلمة رئيس التي وضعت أساساً لتفترق بين راعٍ وقطيع أغنام، وطوال سنوات من استخدام تلك الكلمة، عرف العمال كيف ينطقونها بحقد، وتبدو عادية، بانفلات أعصاب وتبدو عادية جداً، من أطراف الستتهم، وتبدو كأنها من الأعماق، وكان الكيني أنامي أوقيانو من أكثر الذين سبوا بها جيمس ريباك، واعتبرها مدحاً.

- نعم يا رئيس.

نوا في لحظة الشيع الحاقد، يحاول أن ينطقها حاقدة، ولثيمة ولا يستطيع.

كان وحده في مواجهة صاحب العمل، حتى تبنا لم تكن موجودة، لتقوم بمساندته، بحيل المرأة، لو نطق الكلمة نابية، وفهمها ريباك نابية.

- اسمع يا لويس، أريدك أن تعود إلى العمل فوراً، سنعمل أنا وأنت حتى تحدث الانفراجة... ثم أضاف وكان نعاساً طارئاً أرخى جفنيه، ولدرجة أن نوا ظنه قد نام. كان قد نزع قناعه الواقعي عن وجهه قبل أن يدخل:

حين نعمل أنا وأنت فقط، ستكتشف أنني لا أملك ثعباناً يبتلع أحداً، ولا أشرب كوباً من الدم قبل أن أنام في كل ليلة. ستراقب نومي، وتشم غازات بطني، لأننا سنسكن في المصنع معاً... ونعمل بجدية، حتى في تلك الصحوات الليلية بسبب امتلاء المثانة... هيا لنهزم إيبولا... قم.

إذاً كان يعرف.

ردد نوا في نفسه، وهو يحس بالرهبة حتى وعينا الرئيس خامدتان، وصوته ليس أمراً تماماً، بالرغم من صيغة الأمر التي خرج بها الحديث... والواقع أن ريباك لم يكن يعرف تلك المعلومات المثيرة للجدل التي كانت تقال في حقه، لقد عرفها البارحة فقط، وبمصادفة بحتة، حين كانت زوجة أحد عماله في صحوة موتها، ورددتها كما سمعتها من زوجها حرفياً.

لم يدر نوا بماذا يجيب... لقد حوّل ريباك باقتحامه الناعم ذلك، وبوجبة الغداء الحارة التي جليها، أفكاره من قاتل تخيلي، إلى ممتن تخيلي حتى الآن، يمكن ببساطة شديدة أن يصبح ممتناً فعلياً، وهذا ما لم يكن يريدُه أبداً.

الفرصة كانت متاحة بشدة لاكتساب جمهور أرعن في تفاعله. الرعونة هنا، ليست غالباً بسبب الحق، أو محدودية التفكير التي يحملها البعض، ولكن بسبب الرعب، والفرصة التي أتاحت، تدخل بجدارة في ما كان سيسفى بعد ذلك، مقاومة الرعب بالفن.

الفكرة نفسها خطرت في نفس الوقت، لاثنتين من الكونغولييين، علما في شراك إيبولا، بلا خيار آخر، وفيما كان الموضوع يبدو بسيطاً، ولا يحتاج لعناء كبير، حتى يخرج على الملأ، في الحدود التي يقطنها جمادي أحمد وأدواته الحية والميتة، ومئات من الفارين المفزوعين، كان شديد الصعوبة، عند عازف الغيتار الأعمى روائي مونتي، الذي يرتدي الآن أقنعة ريباك الواقية، وقفازي اليدين الخشنيين اللذين بالكاد ناسبا رشاقة أصابعه، ونعلاً من القماش اضطرت دارينا لتفصيله بنفسها، وخياطته باليد، وبإبرة لم تساعدها كثيراً، أحضرها لها أحد الفرنكوفونيين من بيته الشخصي، حتى تنتهي تماماً مسألة الصباح التي يبدو أنها ستصبح عادة عند روائي، لو خرج من تلك المعضلة حياً.

كان الصباح غائماً بعض الشيء، شيء شبيه برائحة المطر، ولا مطر، الحدود ملقحة باللعنة وغياب المصائر، والجنود الذين لم يعلنوا حتى ذلك الوقت، إن كانت مسألة القيادة الجماعية، مزحة أو أمراً جدياً، قد غيروا وريباتهم عدة مرات. ذهب البعض إلى التكنات القريبة، من أجل الراحة والاعتسال، ومعاينة الزوجات، إن كانوا متزوجين، وعاد البعض منهم وقد ارتاحوا حقيقة، أكلوا وشربوا، وحلقوا لحاهم، ولمعوا الأحذية الثقيلة، وبدوا مستعدين تماماً للاستشاعة غضباً عند أول تحرش يحدث.

كان مئات القادمين الجدد من كينشاسا، قد انضموا إلى نرف الحدود، في اليوم السابق، ولم يكونوا مع الأسف يحملون أي أخبار جديدة، عن السيطرة التي أعلنتها الحكومة، قال البعض إن آليات ضبط السيطرة مسألة معقدة، وتحتاج إلى زمن طويل حتى تنجز، وفروا في انتظار الإعلان النهائي عن إنجازها، وقال البعض الآخر إنهم لا يظنون مطلقاً، أن هناك سيطرة يعمل على تنفيذها... وأضاف رجل كان في ما مضى، عسكري إطفاء، وفقد إحدى عينيه في حريق هائل: لو كانت الحكومة جادة في كل ما تعلنه، لما فقدت هذه العين. واعتبرت جملته الرمزية تلك، من أبلغ ما قيل في ساعات الرعب، ذلك اليوم.

كان جمادي أحمد مهتماً بالتفاصيل، ولطالما التقط في حياته العملية الطويلة، مئات التفاصيل، لكنه لم يستفد منها في تطوير أساليبه أبداً. تلك النجاة الموهوبة مثلاً، التي قفزت عدة مرات أمامه، ورقصت، وقلدت حوار الثيران، لم يقدر موهبتها جيداً ويوظفها في فقرة مريحة، ذلك التعبان الضخم غير السام، الذي عرضه سائح هندي، تقطعت به السبل في كينشاسا، بثلاثة فرنكات فقط، ولم يشتريه واشتره غيره، وفتاة من الريف، اسمها تالينكا، قيل إنها تستطيع أن تأكل الزجاج، وتهضمه، كأي وجبة عادية، وسافر إليها حيث تقيم، والتقط تفاصيلها كاملة، مع عدة صور شمسية، وتركها، ليلتقطها ساحر آخر، أقل خبرة، ويجني من ورائها الكثير، وأخيراً ابن أخته شخصياً، الذي اتقن لعبة نط الحبل، وكان يمكن أن يكون نواة

لاعب سيرك محترم، وتركه جمادي بلا أي تقييم، حتى هاجر إلى كندا، وأصبح من أبطال القفز بالزانة المعروفين.

الآن ثمة تفاصيل كثيرة متوفرة في هذا الزخم، تفاصيل راقية، وأخرى تقترب من الحضيض. ولم يكن ثمة ما يؤكد خلو تلك التفاصيل من عريضة إييولا، واحتمال وجوده في دم البعض، لكن عدم سقوط ضحايا في تلك الأيام الماضية، وعدم سماع عظمة أو سعال، أو ظهور نزف على الجلد، أعطى انطباعاً جيداً، بأن مسرح المقاومة نظيف.

بالطبع لن يلتفت جمادي إلى باعة الخضروات، والسيابكين، وعمال ميكانيك السيارات، والعاملين في الأفران، وشعراء العامية الكونفولية، والمغنين غير المخلصين للفن، الذين فروا بلا آلات وترية تؤكد هوياتهم، لأنه لا جدوى من استخدامها في حيلة مبتكرة، وعثر على فتاتين طموحتين: إيزابيلا ومريم، أبدأ استعداداً كبيراً للمشاركة في برنامج مكافحة الرعب بالفن...

كانت إيزابيلا طالبة في مدرسة الفنون العليا بكينشاسا، وتفر بصحبة أمها وأخويها، ولطالما تمت أن تكون فقرة مجدبة في كرنفال، وأجهض سريان المرض في البلاد فرصتها، حين أُلقي حفل خيري كانت ستغني فيه أغنية، صاغتها بنفسها، ولختتها باندفاع الرغبة الشديد.

مريم لم تكن فنانة، ولا قريبة من الفن بأي صورة من الصور، لكنها تتطلع للعمل في السياسة، لا عن طريق حزب مستهلك من تلك الأحزاب الطاعنة في السن، ولكن بتكوين حزبي الخاص الذي سيسقى الشمس، ويظل يعارض بلا نهاية، فلم تكن في بلادها أغنية خفيفة الظل، اسمها الديمقراطية، تأتي بالناس إلى الحكم، وتكتسهم إن أخفقوا... هناك عسكريون يحكمون، وعسكريون ينقلبون على حكم العسكريين، وعسكريون يطمحون للانقلاب على العسكريين المنقلبين، وهكذا.

في هذا الكرنفال الذي فكر فيه جمادي أحمد، وتحت ضغط الرعب الهائل، ستكون ثمة حيل جديدة، الفتاتان ستختفیان عن الأنظار فجأة وتظهران من خلف الناس، أو تحت أقدامهم، أو فوق رؤوسهم حتى. هي حيلة غير مضمونة النتائج، ولطالما خاف من تجربتها حين كان أمناً، متمركزاً في شارع زومبي، وجزبها مضطراً، في أول يوم قدومه، لأول مرة، ضد الجنود الصلدين، المرابطين، ولم تخف أحداً عن الأنظار، لعلها أخفقت بسبب عدم التركيز، أو لعلمهم يزودون الحراس بتعاون ضد ألعاب الحواة، هكذا فكر جمادي، وابتدأ يعد مسرحه المتنوع، وسط صخب غير عادي، وسط فزع باهر، ونفوس مشغولة بإحصاء الاحتمالات كلها، بما فيها أن تقرر السلطات فجأة، أن تلقي بقنبلة حارقة، زنة طن كامل، تعيد الانضباط إلى المكان.

كيف نقاوم الرعب بالفن؟

كيف نغني ونصفق للرقص والحيل السحرية، ونبهز، ونحن بلا مصير؟... كيف... كيف؟
التساؤلات كثيرة، والذين يتساءلون يحاولون سن التساؤلات بشدة، لتخرج مديّة. وأقصى ما في الأمر، أن ولا واحد أو واحدة حتى الآن، صرخ أو صرخت:

- غير معقول... الساحر العظيم جمادي أحمد بشحمه ولحمه؟... غير معقول؟...

تلك الصرخة، لو حدثت، ولا أي شيء بالنسبة لواحد مثله، لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تطرد الموت، أو تهب الحياة... فقط يحتاج إليها الآن ليعود أكثر تركيزاً... هم أن يهمس في أذن تلك المرأة العجوز التي كانت تحبه من قبل، وتحاشى الانبهار به الآن، وكانت مكومة علي الأرض، تأكل خبزاً يابساً، يهمس لها بأن ترفع أسهمه قليلاً، وتصرخ منبهرة، ولم يفعل، يختار واحداً من جيل الشباب، الحليقي الرؤوس، ويرشوه ليصرخ، ولم يفعل أيضاً، وحين أخرج أدواته من الكيس، لبدأ الفقرات التقليدية التي يتقنها أولاً: التنفس من فروة رأسه، تحويل الحمامة إلى أرنب، تحويل الأرنب إلى دجاجة، ابتلاع الأمواس الحادة، وإخراجها معقودة بخيط، بدا أن لا أحد انتبه حتى لوجود أدوات، وحين ففلها، وأكمل تفعيلها وأدى الحيل كلها بسرعة وجنون، وانتظر أن يصفق أحد، واستعد لخرق قانونه في المصافحة، في انتظار أن يصفحه أحد، لم يجد شيئاً...

كانت مقاومة الرعب في تلك اللحظة، ليست بالفن، كانت بمزيج من الرعب، حتى الفتاتان إيزابيلا ومريم، لم تكونا أكثر تفاعلاً، كما كان ينتظر منهما، كانتا تتملصان من نظراته وإشاراته، تركضان بعيداً عن الجموع، وقد رسمتا على الأرض مربعات لعبة الحجلة، للتسلية ومقاومة الرعب باللعب.

في النهاية كان على جمادي أحمد أن يحترم رعبه، أن يجعله يعرّب كرهب الآخرين، بلا تدخل منه، أعاد كل شيء إلى جموده، وتمنى لو مانت تلك الحيل كلها، في تلك اللحظة، حتى يكون حراً طليقاً، وغير ساحر على الإطلاق.

روادي مونتي لم يكن أفضل حالاً، الرجل تنازل بعمق عن كل حالاته العصبية، وعن وقته الذي سيضيع في الشوارع، بلا أجر، وعن قفازيه الواقيين، وعرض كبده للتلف، بزيادة جرعة مثبطات الفدة التي يتناولها... ولو لم يكن قد أقلع عن شرب الخمر منذ سنوات، لأمعن في إتلاف الكبد أكثر:

- دارينا... بقية الرفاق... متقاوم الرعب بالفن... هل تتفقون معي؟

الفرنكوفونيون لن يتفقوا معه على الإطلاق، وكم من مرة أخبروه صراحة، أنه لم يعد نجماً متلألئاً، في سماوات تلك الأيام العصبية، وعليه في سبيل أن يستعيد نجوميته، أن ينتظر. لم يحددوا زمن الانتظار، يوماً... يومين... عشرة، لأنهم لا يملكون حيوية إيبولا ولا دفته، وليسوا متجمنين ليعرفوا المستقبل.

دارينا كانت خائفة جداً. دارينا المرأة، التي لا بد تهتم بأنوثتها، وتعشق مطالعة المرايا، وتعرف شيئاً عن تسريحات الشعر وملابس الفتنة القصيرة والمحزقة، وحلمت كما تحلم بنات جيئها بالفرسان والأساطير، لن توافقه. ودارينا العضا التي التقطها من الطريق، وزيها في بيته، وحملها معه أينما ذهب، ستوافقه بكل تأكيد.

الآن، الفتاة فعلاً مشتتة، وقبل أن تأتي إلى أنزارا بأسبوع فقط، عثرت على رجل أحسنت بأنه ربما يقدرها، لا كعصا بل كامرأة... كانت تتغدى مع روائي في مطعم مميز اعتادا الغداء فيه أحياناً، حتى في المطاعم هي عضا، تعدل مسار قذح الحساء إذا شاهدته ينحرف في يد العازف، حتى لا تندلق محتوياته، تتأكد من تمييزه بين شرائح اللحم وشرائح البطاطا، ويمكن جداً أن تروي له نكتة خليقة حتى يكمل غداءه بلا ضجة. الفتاة لها طموحاتها، ولها قلبها

الناضب، قلب اللقيطة أيضاً قلب إنسان، من المؤسف أنها تعرف أصولها المجهولة، تعرف أنها ليست ابنة رجل يشار إليه باسمه، ولا امرأة تلح عليها مراراً وهي منزعة، أن تمشي بوقار في الطرق الملوثة، تشد قميصها حين تجلس في وسط المجتمع، ولا تكشف الساقين، هي وحدها عرفت بذلك، عرفت من دون أن تسأل، ولم يكن حقيقة من يهذب بكارتها عند روائي، لأنه أولاً لم يرها مطلقاً بحكم غياب البصر، وثانياً لأنه تزوج غيتاره العريق زواجاً كاثوليكياً بحثاً، بكل طقوسه ومصائبه... وأعلن بعد طلاقه من المرأة الأخيرة، أنه لن يعدل أبداً، إذا ما دخلت ضرة للغيتر بيته، فسيهجرها إلى أحضان الغيتار.

الرجل الذي شاهدها في المطعم المميز، وابتمس لها بود، وترك مائدته وانضم إلى مائدتها مع العازف، كان شهيراً أيضاً، نفس شهرة روائي مونتي وربما أكثر قليلاً، وكان وسيماً إلى حد ما، وأعزب، وماتت أمه منذ عامين، وتركته في انهيار عصبي لم يشف منه إلا أخيراً، ونصحه المعارف أن يتزوج، وكان في حاجة إلى أمه، أو بالعدم فتاة تشبه أمه. إنه لاعب كرة المضرب المعروف، باديدي.

بالطبع احتفى العازف بانضمام رجل من الصفوة إلى مائدته، خصه بجزء يسير من وقت الأكل، لأن لا وقت آخر متوفراً لدى روائي ليخص به أحد... وعرف على الفور مستخدماً فطنته، أن ملابس اللاعب رياضية، والسلسل الذي يضعه على عنقه، ويهتز، ليس من الذهب الخالص عيار 21، عرف أن تلك الحقاوة التي أباها العازف لا تخصه، في أي فقرة من فقراتها، إنها حقاوة جاءت من أجل دارينا.

لم تكن ثمة تفاصيل أخرى كثيرة، والتفاصيل التي تجدر حكايتها، أن دارينا وقعت في عشق لاعب كرة المضرب، واثقة تماماً من أنها اجتذبت، تقنتها بوجهها وحديثها، وقوامها كانت مفرطة، ذلك الإفراط الذي جعلها لا تنتب إلى أن اللاعب، طوال جلسة المطعم التي استمرت ساعة، كان شبه شارد. لقد كان يستعيد تفاصيل أمه الراحلة، ويحاول مقارنتها مع التفاصيل الحية التي أمامه، ولم يصل إلى أي نتيجة.

- دارينا... يا رفاق... لنقاوم جميعنا، لنقاوم الرعب بالفن... هيا إلى شوارع المرض نظريها. لم يتحمس أحد... الفرنيكوفونيون مشغولون بإحصاء خسارات ست حفلات قادمة، كان سيحبها نجوم آخرون، يُستقذمون من كينيا ويوغندا وساحل العاج والخرطوم، ويشملون مغني البلاد الكبير عثمان حسين... وهذا الأخير كان موجهاً للعرب الذين ليسوا أقلية وليسوا فقراء وسيدفعون مضاعفاً ليستمعوا فقط إلى أغنية مثل: مسامحك يا حبيبي. والفتاة تسترجع لاعب التنس وتحلم، تكتب له رسالة في قلبها، ولا تعرف إن كان سيقراً قلبها أم لا... حبيبي... انتظرنني في نفس المكان... ستنتهي المأساة وأعود قريباً.

عند تلك النقطة، كان على روائي أن يعمل وحده، أقسم داخل نفسه، بأنه لو نجا، فلن يحيي حفلاً في أنزارا، ولا أي مكان آخر في الدنيا، بعد ذلك أبداً، وتلك الفتاة دارينا، سيزوجها لواحد من آل دميتالو، السفاحين، لو صادف أن أحدهم كان خارج السجن، أو خارج موت إيبولا. اتكأ على مقبض الكرسي ونهض، غيتاره في يده اليمنى، ويده اليسرى تتحنس الطريق، أنفه يتشمم زفارة الشارع العام، من أجل تحديد موقعه، كان حريصاً بشدة على غيتاره العريق، ومشى عدة خطوات قبل أن يصطدم بلوح معدني، كان مسنداً إلى أحد

الأركان، كان الفرנקوفونيون قد توقفوا عن إحصاء الخسارات، وتابعوه بعيونهم، والفتاة لم تكمل رسالة القلب، ونهضت واقفة... سترافقه إلى الطريق وما يحدث فليحدث.

الموتى، بكل تأكيد، لا يحتاجون إلى عازف متمكن وشهير، والأحياء الأشبه بالموتى، سيسعدون حتماً لو عثروا على طبيب منقذ أو لقاح، يعدم إيبولا إلى الأبد، والأصحاء ما يزالون مشغولين بالرعب الذي لن يحاربه الفن...

الفن للفن... هي المقولة المفضلة في تلك الأيام العصيبة، ومقاومة الرعب لا تأتي إلا برعب أكبر... وفي الطرق التي ترنح فيها روائي بغيتاره، وعزف عدداً من المقطوعات التي كانت مقررة في المدارس الكونغولية، من أجل غرس الوطنية في الطلاب، وكلها مارشات عسكرية صرفة، لم يجد من يقف دقيقة ويسمعه، ومن يمر مقترباً ويسمعه، ومن يوازيه في الجانب الآخر من الطريق ويسمعه. غير المارشات إلى أغان عاطفية ومأساوية، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك من يفسرها أو يتفاعل. تعب روائي موتي وتعبت الفتاة، وتعب الفرנקوفونيون الذين تبعثروا في الخلف واجمين، وانهزمت مقاومة الرعب بالفن. هنا في شوارع أنزارا وأزقتها، كما انهزمت في الحدود.

لا شيء يقاوم الرعب مثل الرعب نفسه، أو الأكثر منه، ولا سيادة للفن أو جمال في زمن إيبولا. وفي طريق العودة إلى البيت الراقى، بدا أن روائي سيقول شيئاً، ولم يقل أي شيء.

أقصى درجات التعاسة، أن تخون محبيك، تسافر وراء النزوات، وتجلب الشر، ويموت الآخرون، وتعيش لتذكرهم قليلاً، أو لا تذكرهم على الإطلاق.

أقصى درجات المسكنة، أن تضطر لتأكل بحقد، وتتجشأ بحقد، وتسهم بحقد في إعادة الحياة لمصنع، لم يمنحك الحياة، حين كنت تريدنا كاملة، ولن يمنحك إياها في أي وقت آخر. كان نوا يوسوس لنفسه، وطلب ريباك الذي قدمه ناعماً، بوجه ضاحك، ويدعوه للعودة إلى العمل فوراً، ما زال بلا إجابة، وقد داهمه شيء من الاستغراب، استغرب به داخل نفسه فقط: كيف يجد هذا المحارب القديم، متسعاً من الطمأنينة ليدبر تجارة وسط الرعب؟ كيف يستثمر الرعب بهذه السرعة، وكيف لا يخاف من العدوى، ولا يسعى لإحياء ضميره؟

الإجابة ليست عند لويس نوا، وهو نفسه لم يسع لاسترداد ضميره حين جاءت الفرصة ليسترده، صحو الموت الكاذبة كانت اختباراً حقيقياً، سقط فيه، وتلك الصحو المتأخرة، تحت ثقل الذكريات في بيته، على سرير الخشب المفروش بملاء العذرية الحمراء، لا تقدم ولا تؤخر، ولن تعيد الذين ضاعوا وتوغلوا في الضياع. والآن يسأل عن ضمير ريباك، وريباك قالها عشرات المرات من قبل ومستعد لقولها مجدداً حتى من دون أن يسأل، إنه سيستمر الحياة حتى آخر رمق، ولا يهم ما يحدث بعد فنائه.

مسألة أن يكون ممتناً له بسبب تلك الوجبة، ليست ذات قيمة كبيرة، لو أخضعها لأي تقييم، وكان من الممكن أن يتسؤل من السوق ويصبح ممتناً لأحد التجار العرب، يقتحم أحد المحال المغلقة، يسرق شيئاً من الخبز والمعربات، ويصبح ممتناً للشجاعة وغيبة القانون، وإذا اضطرت فيسكتس دكة قذرة في الحي الأجنبي، أو ينظف مؤخرة طفل فرنسي، مقابل وجبة، أو يقدم خدماته الجليلة، في محاربة إيبيولا، وغالباً تهتم السلطة البلدية بإطعام من لهم نفس للأكل، بعد رؤيتهم تلك الأرواح الضائعة.

طلب ريباك في تلك الدقائق التي أمضاها لويس نوا، يوسوس لنفسه، ويحاول أن يعيد تخيلات القتال، إلى ذهنه ولا يقدر، لم يعد رجاء ناعماً بعينين شبه مغمضتين، وانكساء على الكنية القديمة، لقد أصبح طلباً عنيفاً، لا دخل للامتنان فيه. تلك اللحظة، هب ريباك واقفاً، ارتدى قناعه وقفازيه، أمسك نوا من يده، جره إلى حجرته الداخلية، حيث بقايا تينا أزاغوري، وبقايا تطلعاتها، ما زالت كما هي، ورائحة البخور الحميم الذي أوقدته في تلك الليلة الاستثنائية، ما زالت عابقة، ألقاه على السرير المتهاك، ومن داخل الخزانة الخشبية المفتوحة، أخرج لباس العمل الرمادي، نزع عنه ملاءة المستشفى المتسخة، وألبسه البدلة بنفسه، متجاهلاً عورته التي كانت في وضع المأساة، ليس أكثر من ذلك، عورة ذابلة. الأمر تم بسرعة غريبة، هي نفسها سرعة ريباك في تدارك الخطر التي اشتهر بها أيام التمرد، وسرعته في إنتاج الأقنعة الواقية، التي اكتسبها في الأيام العصبية الماضية. الآن لويس نوا معتقل داخل سيارة الجيب القوية، اعتقلاً ضيق عليه فرصة الاستمتاع بمقعدها المخملي الوثير، وكانت المرة الأولى التي يركب فيها عربة بهذه الخفة، وفي المصنع الذي ما عاد ضاجاً، وتهيمن على

مساحته القلط المشردة، وبعض الكلاب التي سعت لمطاررتها بدافع تمضية الوقت ليس إلا، أوقفه أمام الآلة العتيقة، الآلة التي أعيدت للخدمة، ورقبت إلى جنرال بسبب الوباء وشح العمالة. وطلب منه أن ينتج.

- أنتج ماذا يا رئيس؟

تساءل نوا في براءة، لكنه نجح هذه المرة في أن تخرج كلمة رئيس من حلقه، كما تخرج كلمة سخيف.

ما كنت تنتجه في السابق.

لا أستطيع يا رئيس. الوقت غير مناسب للإنتاج. أنا في حالة حداد على تينا، المدينة كلها في حالة حداد على الضحايا.

قال نوا، وكلمة رئيس هذه المرة، واضح تماماً أنها الكلمة التي تعني: اذهب إلى الجحيم. لكن ريباك لن يذهب إلى الجحيم، ولا أي مكان آخر بعيد عن مصنعه. فقد بدأت خصال التمرد التي نبذها ستين، تنطبع على تصرفاته بالكامل، حَبَّ إلى باب المصنع الموارب في حذر، أغلقه ببطء، بعد أن ألقى نظرة متعجلة علي الطريق، قصد مكتبه وعاد بسلاح رشاش، غير مرخص، كان مخبأ في رف من الخشب، في إحدى الخزائن، وضعه على كتفه بعد أن عبأه بالرصاصة، ووقف يستمع بنشوة إلى هدير الآلة القديمة، حين بدأت تعمل، ينتشي أكثر، وهو يشاهد ركبتي نوا ترتعشان، ولسانه يخرج جافاً محاولاً أن يبلل الشفتين ولوهلة خاطرت بباله فكرة مزعجة، لمن ينتج حقيقة؟ والمدينة مستعدة للتعري الكامل، كي تقايض به الموت، وسكة السفر لتوزيع الإنتاج في الدول المجاورة مغلقة، لكن بنفس تفاؤله أن حرب العصابات التي كان يشنها على السلطة، ستنتهي ذات يوم، بتسوية مرضية، وانتهت بالفعل بتلك التسوية التي منح بموجبها أرضاً واسعة أقام فيها ذلك الصرح، ورأس مال جيد، استثمره، كان الآن يتفائل بأن الوباء سينحدر، وتعود الحياة أفضل مما كانت عليه، وبالنسبة للزوجة المختبئة في كينيا، بصحبة سائق الشاحنة المخنت، لا بأس... سيجدها بنفسه يوماً ما، ولن تكون مغربة أبداً، ليهتطفها أحد بعد ذلك... كان أكثر ما يربحه في هذا الموضوع الأخلاقي، أنه لم ينجب منها عيلاً، وبذلك أراحته من عبء التفكير العضني، في مسألة النسب، لو كانت قد أنجبت بالفعل.

كانت الآلة الجنرال تدور في ببطء، طائرة غباراً كثيفاً، وبرازاً متخثراً، تركته القلط المتسكعة، الخيوط تتشابك بألوانها المتعددة، الأزرق، الأحمر، البنفسجي، وتتضفر قمصاناً وسراويل، وشالات للدفاء والأناقة الفقيرة، ونوا ما يزال ثابتاً برغم ارتفاعه، وسيثبت حتى نهاية وردية العمل، وورديات عمل أخرى ستعقبها، وسيكتشف، وهو سجين بلا أي تهمة سوى أنه لم يموت، أن ريباك أنتج له منامة رخيصة من حنالة القطن، واشترى له فرشاة أسنان بدائية، وماكينه حقيرة لحلاقة اللحية، وألقى بمرتبته قطنية في أحد الأركان، ليتمدد عليها، لساعات محدودة.

سيكتشف أيضاً، لأول مرة منذ أن مرض وشفي، أن الموت في حالته، كان ضرورياً جداً، وأفضل كثيراً من هذه الحياة التي يقضيها الآن بلا مباح.

الغريب في الأمر، أن إيبولا لم يكن يتحاوم حولهما في تلك اللحظة، كأنه ترك نوا وشأنه، بعد أن أبلغه رسالة في غاية العنف، وكأن ريباك لا يهفهفه في شيء، أو يذخر له موتاً كبيراً يليق به. موت واحد مثل جيمس ريباك في مدينة محدودة الطموح مثل أنزارا، سيكون موتاً ترفيهاً للذين ما زالوا يحلمون بالترقيه عن أنفسهم، ذلك أن صحوة موته، لن تكون عادية وماسخة ومكثرة، مثل صحوة أهل المدينة الباقين، كلها خيانات وعلاقات غرامية سمجة، هنا قطعاً مسائل معقدة كثيرة، شيء من حياة الغابات البعيدة، وشيء من حياة ما بعد الغابات، كرجل أعمال حر، تحترمه نفس السلطة التي كانت تطارده في السابق.

في الساحة الكبيرة، ساحة إيبولا، حيث العمل ما يزال مستمراً، أعلن الطبيب الوثني لوثر الذي لم يصب حتى الآن برغم وجوده في المستنقع، أنه لم تعد هناك محاليل للثروية، ولا مسكنات للصداع والحمى، ولا شاش ولا قطن لإيقاف نزف الجلد، ولم يعد هناك من يمنح دماً، وحتى لو وجد، فإن المحاليل التي تكشف نوع الفصيلة، وإمكان أن يكون الدم ملوثاً أو نظيفاً، لم تعد موجودة، أعلن في صوت هائئ رصين، أن زميله نصر الدين أكوي، توفي صباح هذا اليوم، بعد أن أدى واجبه كاملاً في مكافحة الوباء، وأنه لن يلقى في الحفرة الموحدة، التي تضم الضحايا، لأن الطبيب حتى لو مات بالمرض الموحد، فلا بد أن يدفن بما يليق وسمعته. بديهي لم يكن أحد يعرف شيئاً عن صحوة موت الطبيب، وما كان يليق بزميله أن يعلنها حتى لو كان يعرفها.

على الحدود كان ثمة حدث جديد، ويبدو أن الفكرة التي خطرت لجيمس ريباك في صنع الأتقنة الواقية، ونفذها في أنزارا، وريح منها الكثير، قد خطرت لريباك آخر كونغولي، ممكن جداً أن يكون قائد حرب عصابات سابقاً، أو جنرالاً متقاعداً، يدير مصنعاً للنسيج، يعامل واحد معتقل، بسبب شح العمالة، لأن شاحنة محملة بتلك الأتقنة، وصلت إلى الحدود، وهي تحمل مرؤجين للسلعة، أكبر عمراً، وأكثر إلحاحاً، من مرؤجي سلعة ريباك في الشوارع، انتشروا وسط الفارين المرعوبين الذين رفضوا من قبل تماماً، فكرة مقاومة الرعب بالفن، واتجهوا إلى الطريقة القديمة، طريقة الجدل البيزنطي:

هل البيضة من الدجاجة، أم الدجاجة من البيضة؟

كان الساحر جمادي قد أصبح الآن واحداً منهم، وكان في جانب الذين يقولون إن البيضة من الدجاجة، واحتد عدة مرات، وهو يحاول أن يبرز لماذا اتخذ هذا الموقف.

انتشر مرؤجو السلعة الكونغولية بسرعة انتشار المرض نفسه، باعوا بقسوة وإلحاح، ولم يبق بلا قناع، سوى الجنود الذين رفضوا الشراء بشدة، قالوا ليس في الأوامر التي وردتنا، أمر واحد يتحدث عن ارتداء الأتقنة. شيء آخر حدث، أن كثيراً من الفتيات العازبات، اللاتي صادف وكن بين الفارين، وجدن تجفف الحدود هذا، وإن كان مسوراً بالرعب، يصلح تماماً لبدء علاقات غرامية طارئة، لن يكتبن فيها الرسائل، ولن يتعشمن في وعود زواج أو خلافه، مجرد علاقات تعشهن قليلاً، ويمتن وهن مجزبات للعشق واللوعة، وكل المطبات التي يتحدث عنها العشاق منذ فجر التاريخ. النظرات بدأت تتحاوم لانتقاء الأوسم والأفضل، والذي يبدو شهماً وثابت القلب، وبالطبع لن تتحاوم أي نظرات حول رجل مثل جمادي أحمد.

دارينا ليست على ما يرام، بتور حب الشباب التي شفيت منها العام الماضي، بعد جلسات متعددة عند أطباء الجلد، عادت لتغزو وجهها من جديد، وتلك العطسة العادية التي عطستها، جعلت ركبتيها ترتجفان، وجلدها الذي حكته من قرصة بعوضة، ونزف، أطار عقلها حقيقة. يقولون في كل النشرات التي استمعت إليها من الراديو الصغير، الذي تركه الفرنكوفونيون دالراً، إن المرض يبدأ بالعطس، وآلام المفاصل، ثم يبدأ النزف، وقد عطست، وتحس بألم في مفاصل يدها، وها هي بقعة نزف في ساقها. قامت من ركنها، وجلست عدة مرات، وألقت ببصرها على روائي الذي كان غافياً، ويحلم بحسنات شوارع بروكسل، اللاتي لم يرهن حقيقة، لكنه عرف بتفاصيلهن، من فطنته التي تعرف كيف تجمع الشوارد وتصنع منها تفاصيل جديدة بالاسترجاع، أحست دارينا بأن النهاية وشيكة، نهايتها هي لا نهاية أحد غيرها، فقط لو أمهلها الفيروس حتى تتأكد إن كان لاعب كرة المضرب يحبها أم لا؟... إن كان قد نوى الزواج منها أم لا؟... لقاء المطعم كان عابراً بالنسبة للرجل، ولم يكن عابراً بالنسبة للمرأة التي تسكنها، وتتمرد أحياناً على وضع العصا الذي تشغله منذ وعت... أرادت في تلك اللحظة أن تنشغل بشيء قبل أن تسقط، مثلاً أن تقشر قليلاً من اللب، ولم يكن ثمة لب، تفك شعرها وتضفره، لكن يديها لا تساعدانها، وتصنع طبقاتاً من البيض الذي تفضله نصف استواء، وكان البيض موجوداً في مطبخ البيت الراقي، لكنها ليست جائعة. هذه المرة هي من سيزعج روائي، من سيوقفه من تحت أجساد البلجيكيات، ويحاول إرباكه بلفة غير معتادة، لا لشيء سوى مقاومة الرعب بالتفاهة:

- روائي.

- انتظري قليلاً يا دارينا.

ردد العازف من منتصف حلمه الورد، كان بصحبة مغنية أوبرا رائعة، لم تكن موجودة حقيقة، ولم يستعدها بعقله الباطن، لكنه اخترعها، ووظفها معجبة لأدائه، وتصحبه الآن في جولة بشارع غاليري ستريت، لا يرى فيها شيئاً، لكنه يتحسس الأشياء بفطنته.

- لحظة يا دارينا حتى تنتهي ماريما دونكن من مغامرة اختطافي الرائعة، وتعيديني للفندق.

دارينا تعرف أحلام رفيقها جيداً، أحلام يقظة متمكنة، لكنها تتبعه إلى النوم، نافية عنها اليقظة بشدة، يخترع تلك الأحلام حين يكون الواقع مسموماً ولا طريقة أخرى للحياة، حين تأتي أيام لا يطلبه فيها أحد لإحياء حفل، ولا يكون بمزاج كاف لابتكار مقطوعة جديدة، وحين يحدث انقلاب عسكري مفاجئ في بلاده، ويحاول حساده أن يضعوه في خانة سدنة النظام القديم، تملأ للسلطة الجديدة، ويستدعي عشرات المرات لاستجوابه، والاستماع لأوامر أعدت له خصيصاً، أن يؤلف مقطوعة تمجد السلطة. كان يلج تلك الأحلام... ويعيش فيها زمناً قبل أن يفيق.

انتهى الحلم بلا أي مشكلة... أعادته مغنية الأوبرا ماريما دونكن إلى الفندق وقبلته.

- نعم يا دارينا... نعم... هل انتهت موجة الرعب؟ هل أفلح إيبولا عن القتل؟ هل صرنا

أحراراً وسنعود إلى بلادنا اليوم؟

- لا.

ردت الفتاة وقد اقتربت منه كثيراً، كأنها تهم بتقبيله، أو كأنها تستثير فطنته ليتعرف إلى تفاصيلها الحميمة، وروادي يعرف تلك التفاصيل، ورعاها منذ كانت براءات طفلة، حتى عُدت مغريات امرأة.

كان منظمو الحفل الفرنكوفونيون قد انتقلوا إلى عدد من حجرات البيت الخالية، يحصون الخسارات أو ينتظرون الموت، وقد تركوا بيوتهم الأصلية، وقرعوا للخوف والتأملات، بعيداً عن الأجواء الأسرية وقريباً من النجم الذي لن يتألاً مجدداً، إلا إذا رحل الوباء، وكان في عهدتهم ويجب رعايته مهما كان.

- لا... لكن مجرد سؤال عابر، لماذا لم تتحز بشي طوال إقامتي معك؟

السؤال لم يكن عابراً، هو سؤال مقاومة الرعب بالتفاهة، والإجابة صادمة، ومرة مذاق، وتدخل في سياق مقاومة التفاهة بالحسم.

لأنك أتفه من أن يتحز بك نجم مثل روائي مونتني. انزهي من أمامي يا دارينا. رد روائي، وقد انفلتت أعصابه تماماً، ولم يستطع برغم المجهود الكبير الذي بذله، من أجل إيجاد عذر للفتاة، بما في ذلك الرعب الذي تعيشه ويعيشه معها، أن يسيطر على عضلة واحدة من عضلات وجه.

الذي لم يجعل الفتاة تموت غيباً في تلك اللحظة، هو أن الباب طرق بعنف، وجاء أحد منظمي الحفل راکضاً من غرفة داخلية، وهو يحكم ارتداء قناعه، غاب قليلاً عند الباب، وجاء بصرخ مهلاً:

أبشر يا روائي مونتني... أبشري يا دارينا، أبشروا يا رفاق... لقد وصلت النجدة، طائرات الهليكوبتر تحلق في سماء أنزارا... وصل الإنقاذ.

بقية الفرنكوفونيين، خرجوا يتراکضون، شبه عراة، وكانوا في حالة تخفف من الأعباء كلها، بما فيها عبء ارتداء القمصان والسراويل، أسرعوا إلى الطريق ودارينا خلفهم، وصوت العازف ينادي... يا رفاق... يا دارينا... ماذا يحدث؟

خيبة الأمل...

أكثر العبارات قساوة، للمفرطين في الأمل. وأكثرها وحشة و فراغاً، وإنهاكاً للأرواح. ولطالما جرى تداول تلك العبارة، عبر تاريخ المجتمعات، تداولها في السير، والمذكرات، والحكي الشفاهي، باستحقاق وغير استحقاق. كأن يردد أحدهم في إحدى القرى التي تعتمد على ريّ المطر: غاب أملي في تلك السحابة الداكنة، حين لم تمطر.

كأن يردد في كل مكان: غاب أملي في الحكومة المنتخبة، حين استحالت كابوساً، في القمر الذي يشبه وجه حبيبي، حين خسف فجأة، في سلة غذاء العالم، حين وجدتها فارغة، في رواية لغابرييل غارثيا ماركيز اسمها ذكرى عاهراتي الحزينات، ويمكن جداً أن تردد أمنياً في سرداب تحت الأرض، يتحطم فيه مناهضون لسلطة بلادهم: غاب أملي في ذلك الضرور الحقيق، حين مات قبل أن أفقأ عينيه وأفقلع أظفاره.

خيبيات الأمل كثيرة، ومتشعبة، وبعضها مشهور جداً، خيبيات العشق، والمرض والموت، والهزائم، والانكسارات بأنواعها، حتى الفاتح المغولي جنكيز خان، كانت له خيبيات أمله، والإسكندر المقدوني، له خيبيات أمله، و«حتى أنت يا بروتس»، تلك العبارة المألوفة، التي تردد كثيراً، من إحدى خيبيات الأمل الكبرى التي نقلها التاريخ.

خيبة أمل المحاصرين ببايولا، سوى في الحدود الكونغولية السودانية، أو في داخل أنزارا المقرصنة كلياً بضياح المصير، هي أيضاً خيبة أمل مدهشة، ذلك أن الأمل كان كبيراً، والهمهمات التي رددت في الساحة الموبوءة، لم تذكر أي شيء خلاف أن نجدة قادمة بطائرات الهليكوبتر.

حقيقة لم يكن أحد يعرف ما ستحتويه تلك الطائرات، ولم يجهد أحد نفسه في التساؤل إن كانت تحمل دواءً أو طواقم طبية، أو أقنعة متطورة، أو هواء نقياً، يضح في الأجواء. كانت كلمة نجدة في مثل تلك الظروف، تكفي كثيراً.

في سماء الحدود، حيث الرعب أضحى كائناً حياً، يعيش وسط الكائنات الأخرى، ظهر السرب الغالي لطائرات الهليكوبتر فجأة من بعيد، وصرخ الساحر جمادي، صرخ بأعلى صوته:
- ألم أقل لكم؟

وكان في الحقيقة لم يقل أي شيء بخصوص نجدة قادمة، ولم تكن قد طرحت هذه الفكرة في الحدود أبداً، لقد انشغل في البداية، بمحاولة مقاومة الرعب بالفن، وأخفق، وانغرس في الإخفاق، لدرجة أن خامات ألبابه الحية: الدجاجة والأرنب والحمامة، انفلتت من ثقب كيسه وتحررت، ولم ينتبه، وانحاز أخيراً إلى الرعب الكبير، رعب الفارين كلهم، حين سخر لاستعادة الجدل البيزنطي: هل البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة؟

- ألم أقل لكم؟...

وتسألُه العجوز التي كانت تحبه في الماضي، وتطارده فقراته، وتجاهلته في كل تلك الأيام، وعيناه معلقتان بالسرب الأسود الذي يقترب:

ولا يتذكر جمادي ماذا قال، لأنه أصلاً لم يقل شيئاً. كلمة أن النجدة ستجيء، أسعفه بها أحد زملاء الفرار، حين أخفق في ترديدها. وحين حازت الطائرات المكان، وأصبح بالإمكان رؤية طولها وعرضها، والخدوش التي على هياكلها، ردد الجميع:

- النجدة وصلت... النجدة وصلت.

وحين تجاوزت الرعب إلى بعيد... جاءت خيبة الأمل الكبيرة التي يمكن إضافتها بسهولة، لخيبات الأمل التي سيدونها التاريخ في ما بعد.

لم يكن مدوناً في الأوامر التي يتلقاها حراس الحدود باستمرار عن طريق جهاز اللاسلكي وشيفرة موريس، أن نجدة ستجيء، وهم لم يفهموا نفسية أحد من المتجمهرين في المكان، لأن فهم النفسية أيضاً لم يرد في الأوامر، وقد جذب جمادي أثناء فترة استراحة بين دورة جدل بيرنظي، ودورة أخرى، أن يسأل نفس الجندي ذي اللحية النابتة البيضاء، الذي أخبره بحسم، من قبل، بأن لا قيادة لفرد في هذا المكان. سألته إن كان من الممكن أن يدرج النساء والأطفال والشيوخ الطاعنين في السن، وهو أحدهم، في أمر إنساني من أوامره الكثيرة، حتى لو كان قديماً وانتهت صلاحيته، أخبره أنهم يحتاجون إلى خيام مجهزة ساترة. بدلاً من ترديد الأهازج في العراء، ولو تنازل لسعادته، وسمح بأن تُخلى لهم إحدى الثكنات الكبيرة، حتى يرتعّبوا على راحتهم بلا كشف حال.

الجندي استنبر بشدة، صوب ناحية سحابة عابرة، وخاطبه، وأيضاً من أعلى مذكراً إياه بقصر قامته المخزي:

- تراجع إلى مكانك أيها المواطن... تراجع.

وتراجع الساحر العجوز، لأن لا شيء أخر يفعله سوى التراجع... لن يميته انحيازه للبيضة أو الدجاجة على الأقل، ويمكن جداً أن يموت برصاصة مستتارة، تسبق الفيروس.

في مصنع ريباك الذي غير اسمه نظرياً، فجأة من مصنع «جوهرة الجنوب»، إلى مصنع إيبولا للنسيج، تماشياً مع اللغة السائدة، وحيث لويس نوا ما زال ينتج بفزع، مستخدماً ورديات عشرة عمال، وتأتيه سندويتشات البيض والبصل، وعصائد الفيتريت والدخن، التي كان يصنعها ريباك بنفسه، حتى عنده، وحفر له ريباك مرحاضاً مؤقتاً، تحت الآلة، حتى لا يفارقها في وقت سخافة المستقيم وحاجته للإفراغ، وأيضاً دحرج له مرتبة القطن القديمة، على مسافة مترين من الآلة الدائرة، سمع هدير محركات السرب، نوا صرخ داخل ذهنه: نجدة... نجدة...

ريباك ورشاشه على كتفه، وطبائخ التمرد القديمة تلبسه من رأسه حتى قدميه، خب إلى باب المصنع المغلق، فتحه في حذر، ألقى بنظرة خبيرة على السماء، وعاد يردد:

- ليست من طائراتنا... هذه شيء آخر... عد إلى عملك يا نوا.

وكان نوا على رأس عمله بالتأكد، وحتى خيبة الأمل التي أصابته، لم تؤثر في قميص القطن المزركش الذي كان ينتج في تلك اللحظة، خيبة أمل ما كان لها أن تبرّغ، وأمامه رشاش غير مرخص، ويبد قائد كان مشروع ديكاتور قومياً بامتياز.

المرضى الراضون تحت الخرق المبللة، والسوائل التي باتت تسقى بالفم، بعد أن نظمت المحاليل الوريدية، لم يصابوا بأي خيبة أمل، ذلك ببساطة شديدة، لأنهم كانوا بلا أمل. الأصحاء الذين كانوا يعملون في تبليد تلك الخرق، والسقاية، مرتدين واقبات رياك، أو الذين عادوا بعد صحوات موت كاذبة، ويراجعون الصحوات التي تحدث من حين لآخر، بغية تصنيفها حقيقية أو كاذبة، هم الذين أصيبوا بخيبة الأمل، ذلك أن انتهاء ذلك الواجب المقيت، كان كفيلاً بإراحتهم من عناء الموت الذي قد يصيبهم أيضاً، ومن عناء صحوات الموت الفضائحية التي ملوا من تكرار سماعها، وكلها ماسخة وتدور في نفس الفلك، رجل يخون امرأته، امرأة تخون زوجها، عامل منشأة صناعية يتفطرس على رئيسه المتفطرس، ويسبها، واحدة من نساء الماخور، شاهدت عورات سلاطين القبائل المحترمين، ورسمتها في حكي بذيء، شيخ وقور يقر بأنه كتب قصائد الغزل في طالبات المدارس ومزقها، وتاجر عربي معروف بالنزاهة، يقر بأنه باع مكعبات شوربة الدجاج من ماركة ماجي، باعتبارها حلوى فاخرة. وتلك الصحوات البديعة التي كانوا ينتظرونها بشدة، من واحد مثل جيمس رياك، أو الضابط الإداري الذي يسمى محافظاً تجاوزاً، أو أي أجنبي من سكان الحي المحضض ضد إييولا، يمنحهم ترفاً حضارياً، لم تحدث أبداً.

في البيت الراقي، حيث روادى مونتي يتخبط بالآثات، ساعياً وراء الخبر، ومجهزاً معنوياته كلها، للمفارقة في أسرع وقت، باعتبار أن النجدة جاءت من أجله وحده، كانت ترسم واحدة من خيبات الأمل المحكمة، عادت دارينا من الشارع، تبكي في وهن، وعاد الفرنتكوفونيون، وقد تضعفت ملامحهم، ليعلن الجميع، أن لا شيء يخص أنزارا الوطنية، ومأساتها في تلك النجدة، وإن كان يريد استعادة نجوميته، فعليه أن يصبر.

- اسمع...

صرخ أحد المنظمين، وقد بات في مقدوره الآن، أن يفك حزام الجلد من وسطه، ويجلد به نجماً عالقاً في الوهم، لا يعرف أحد إن كان سيتلألا من جديد أم لا، أو يلتقط ذلك الكرسي الخشبي ويحطمه على رأسه:

- اسمع يا روادى... للمرة الألف، أنت ضحية مثل الجميع... ألا تفهم؟

دارينا، تحت وهم إصابتها بالمرض، بدأت تتعقل، واتبعت ردة فعل الحزن المشهورة في الطب، من دون أن تكون قد سمعت بها من قبل:

اندهاش

إنكار

استسلام

أمل

لقد كانت ما زالت تأمل، وتأمل إلى ما لا نهاية، وبذلك نجت بمعجزة من خيبة الأمل الكبيرة المسيطرة.

الذي حدث أن الطائرات التي صنعت غبارها وفوضاها، لم تكن للضحايا، ولا لمعاوني الضحايا، ولا لأي مؤمل فاشل يعيش في تلك التربة الموبوءة، كانت في الواقع للذين لن يكونوا ضحايا على الإطلاق. طائرات إجلاء دولية، حطت بوقار في إحدى الحدائق الأجنبية

داخل أنزارا، وانتشلت بنشاط كبير، كل الذين يقيمون بعيداً عن أوطانهم في مهمات تصنف إنسانية، بمن فيهم أولئك المغامرون، المفترض أن منازلة أمراض الدول الفقيرة، وأوبنتها جزء هام من مغامراتهم، ستعود الطائرات مجدداً... هكذا أكد قائدوها، لمندوبي الحكومة، وزعماء القبائل، الذين اجتمعوا على عجل، ونشطوا إلى الحى الراقي، حيث هبطت. ستعود بأطباء وعمال إغاثة، ومحاليل تروية، تأكدوا.

كانت دورة أمل جديدة، لم يرد أن يتبعها أحد... وتنتهي بالخيبة كسابقتها.

القصة لم تنته بعد، والاحتمالات كثيرة ومعقدة.

من المحتمل جداً، أن يكون إيولا قد شبع، أو هزته صحوه ضمير مباغتة، فيعفو عن الجميع، كما عفا من قبل عن بعضهم، يتيح لهم صحوات موت فضائحية كاذبة، ويعيدهم إلى الحياة الفقيرة الوعرة من جديد، والتي كانوا يالفونها ويحبونها رغم ذلك، قبل أن يأتي مهاجراً، داخل الدم الفاجر لعامل النسيج لويس نوا، وأن يرحل شهر أغسطس بؤسه، وزدائه، ويهل ديسمبر نظيف، برغم الحر والرطوبة.

من المحتمل أن تعود النجدة من جديد، ومعها ما يقض مضجع إيولا، يجبره على الفرار إلى مكان آخر، لا يعرفه فيه أحد، أو يعود إلى حالة استرخائه القديم، في قرية من قرى الكونغو، قبل تلك الانطلاقة الكبرى المحيرة.

من المحتمل أن يظل البيت الراقى الذي يؤوي عازف الغيتار الأعمى رودي مونتي، والفتاة الأملية بشدة دارينا، مقر إقامة شبه دائم، تنطبع فيه بعض الذكريات القابلة لاستعادتها في المستقبل، أن يتزوج أحد الفرزكوفونيين سراً من دارينا، وأن تصبح ربة بيت مسالمة، تعتني بأسرتها، وتواصل إلى حد ما، وظيفة العصا، في تمرير رجل عجوز، كان نجماً في ما مضى، وانطفأ بلا خيار آخر سوى أن ينطفئ، وذلك الغيتار العريق الذي رافق النجومية سنوات طويلة، من المحتمل أن يكسره طفل، أو تبرز عليه قطة، أو يسرق، أو يضيع في فوضى الحياة ولا يعثر عليه أحد.

من المحتمل جداً، أن يتبع لويس نوا، مقولة أن الضغط يولد الانفجار، يعيد الهيبة للقاتل التخيلي الذي ألقاه عدة مرات من ذهنه، ويستغل غفوة ما، أو شرود ذهن من جيمس ريك، ويحوطه إلى قاتل حقيقي، في مصنع مفلق ومحاط بالحذر. وساعتها سيقال إن جيمس ريك غفا ومدفعه الرشاش في صدره، وانطلقت منه زخات رصاص غزيرة، أودت بحياة حافلة، لواحد من زعماء العصابات المتمردة الذين كرمتهم الدولة، بعد أن ألقوا أسلحتهم، وخرجوا من الغابات، وتحولوا إلى منتجين وطنيين حقيقيين، ساعتها لن تكون ثمة صحوه موت مبهجة سينتظرها أحد، لأن موت الرصاص لا يمنح الفرصة، حتى لحك أنف مستعر، أو إخراج ربح عاقلة بالمستقيم.

بالنسبة للحدود، ربما لا يطرأ تغيير على الإطلاق، وربما يطرأ بعض التغيير، ربما تنشأ من العدم، مدينة جديدة، ستسقى بأي اسم، مدينة عادية، فيها شوارع ومتاجر، وملاهي، ومواخير، وزيجات وطلاقات وقصص حب كاملة وناقصة، ومقابر للذين سيموتون في ما بعد، وشارع شبيه بشارع زومبي، يحوله عامل بلدية منهر إلى شارع اسمه جمادي أحمد، يمتلكه ساحر عجوز ما عاد قادراً حتى على إنتاج الحيل العادية المألوفة.

نبذة عن الكتاب

في عشش الكرتون، أحقر حي سكني في منطقة أنزارا، جنوب السودان، يكبر لويس نوا على وقع طفولة بانسة. الشاب الذي يعمل في مصنع للنسيج، يقزر الزواج بأول فتاة يراها بتتسم، تينا بانعة الماء في الشوارع، ستصبح زوجته. لكن العامل البسيط ما يلبث أن يخونها مع خادمة الغرف في نزل للفقراء، في كينشاسا.

وفي ظهر يوم حارٍ سلاحق "إيبولا"، الفيروس القاتل الذي ضرب الكونغو، جسد نوا ليسكن دمه. يغادر الفتى الأفريقي إلى بلاده، بعد رحلة حزن إلى الكونغو، ليصبح من دون أن يدري جسراً يعبر عليه المرض المميت إلى أنزارا.

عبر فكرة القتل المحتمل، يرصد أمير تاج السر عوالم غرائبية، محاولاً إيجاد مدينة عادية، فيها شوارع ومتاجر، وملاهٍ ومواخير، وزيجات وطلاقات وقصص حب كاملة وناقصة.

نبذة عن الكاتب

أمير تاج السر روائي سوداني. يعمل طبيباً للأمراض الباطنية في قطر. كتب الشعر مبكراً، ثم اتجه لكتابة الرواية في أواخر الثمانينيات. وصلت روايته "صائد اليرقات" للقائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية ٢٠١١، وترجم عدد من أعماله إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطالية.

[telegram @ktabpdf](https://t.me/ktabpdf)